فوزي عبد القادر الميلادي

قصر الذكريات

قصص قصيرة

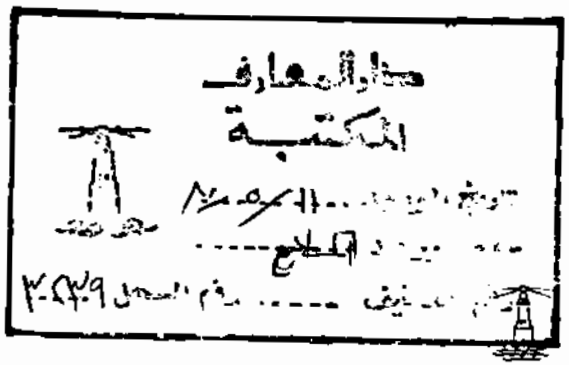

دار المعارف
المكتبة
تاريخ الورود ١١/٥/٨٠
..... المطالع .....
..... رقم السجل ٣٠٢٣٠٩

دار المعارف

المحتويات

قصر الذكريات ٥
خيال امرأة ١١
القمر يبتسم ١٨
ليلة العيد ٢٥
اللحن الأخير ٣١
حياة جديدة ٣٨
شروق ٤٥
الأب الحائر ٥٢
المفاجأة ٥٧
الرسالة الأخيرة ٦٤
عند الخريف ٧١
الثوب الأزرق ٧٦
الليلة الأخيرة ٨١
للذكرى ٨٨
فوق السحاب ٩٣
المسافر ٩٨
الكنز ١٠٤
زهور الفل ١١٠
بائع الكتب ١١٦
قلب كبير ١٢١

قصر الذكريات

أخذت السيارة تقترب من ضواحى المدينة ، وعلى البعد بدت بعض الفيلات والمنازل المتناثرة وقصر كبير تطل حديقته على الطريق . . كان صلاح يجلس إلى مقعد القيادة فى استرخاء وقد بدت عليه مظاهر الإعياء ، ومد يده اليسرى إلى جيبه وأخرج منديله الحريرى يمسح حبات العرق التى كانت تنساب فى رفق على جبينه ، وهيئ له وهو يمسح قطرات العرق أنه يزيل آثار التعب . . وعلى إثر ذلك شعر براحة نفسية وعلت وجهه ابتسامة خفيفة ، وأخذ يختلس النظرات إلى إلهام زوجته التى كانت تجلس بجواره . . كم هى فاتنة جميلة ! لقد مضى على زواجهما نحو عشر سنوات ، ومع ذلك فإن الأيام لم تزدها إلا جمالاً ، لاحظ صلاح أنها تنظر إلى الأفق نظرات شاردة حالمة . . وفجأة استدارت وطلبت منه فى صوت مرتجف أن يخفف من سرعة السيارة .

ونظر إليها زوجها فى دهشة ما لبثت أن تحولت إلى جزع عندما وجدها ترتجف ، وأحس بقلبه يعتصر وسألها فى لهفة : « ما بك » ؟

فأجابت فى صوت خفيض . « لا شىء ! فقط أريد أن أستريح . . أرجوك ياصلاح . . من فضلك . . »

وعاد يسألها فى لهفة وأسى : هل تريدين أن نتوجه إلى الطبيب فوراً ؟ . ماذا بك يا حبيبتى . . أخبرينى . .

وفى صوت لا يكاد يسمع أخذت تتمتم « من فضلك . . أرجوك . . أرجوك . . توقف قليلاً نعم . . هنا . . هنا » .

وتوقفت السيارة أمام باب القصر وماكادت تقف حتى هبطت منها إلهام فى خفة وقد بدأ يزايلها الشحوب الذى اعتراها منذ قليل ، وعرفت الابتسامة إلى شفتيها ، ونظرت إلى صلاح وفى عينيها بريق غريب وقالت فى صوت عذب يفيض حناناً .

« أغلق باب السيارة . . سنطلب من سكان القصر السماح لنا بكوب من الماء والاستراحة هنا قليلاً فى هذه الحديقة ريثما تتحسن حالتى - ثم نستأنف السير . . »

وهم صلاح أن يقول لها : إن حالتها قد تحسنت وإنه من الخير أن يواصلا السير إلى الإسكندرية ، ولكن نظرة واحدة منها فيها توسل وفيها ضراعة كانت كفيلة بإسكاته فماتت الكلمات على شفتيه !

ومد يده إلى باب السيارة فأغلقها . . ووضع المفتاح فى جيبه ، وتأبط ذراعها واتجها إلى القصر . . دقت إلهام الجرس ، وبعد فترة ليست قصيرة ظهرت خادمة بدينة تتشح بملابس بيضاء . . فتحت الباب فى حذر ، وهمست متسائلة « من الطارق » .

شرحت إلهام الموقف بلهجة مضطربة ، ووقفت الخادمة تتأملها ثم وقع نظرها على السيارة التى تقف على الباب فتساءلت : « هل هذه سيارتكما » ولما جاء الرد بالإيجاب . . بدا على وجهها الاطمئنان ، ودعتهما لدخول الحديقة . وتوجهت

للقصر لتحضر لها كرسيين .

دلفت إلهام إلى الحديقة وهى تستعرض فى ذهنها صوراً من الماضى . . ماضى طفولتها وفجر شبابها . . لقد كان آخر عهدها بهذه الحديقة منذ ثلاثة عشر عاماً خلت . . لقد تغيرت أشياء كثيرة منذ ذلك التاريخ . جالت ببصرها فى الحديقة تبحث عن شجرة الورد . . شجرة الذكريات . . ولكنها لم تعثر لها على أثر . . إنها لا تزال تذكر كيف كانت تجلس إلى هذه الشجرة فى أجمل ساعات الأصيل ترويها وتناجيها . . كانت تعلم أن هذه الشجرة عزيزة إلى قلب خطيبها فكانت تعتز بها وتعتبرها رمزاً للصلة الروحية التى تربط بين قلبيهما .

كانت إلهام تقيم مع أسرتها فى ذلك الوقت فى المنزل المجاور . . وكان محسن ابن صاحب القصر زميل طفولتها . . طالما لعبا معاً واستذكرا معاً وعندما شبت إلهام عن الطوق وتخرج محسن من الجامعة لم يجد صعوبة فى التقدم وطلب يدها من أسرتها التى رحبت به صهراً وصديقاً .

ومرت أيام الخطبة سريعة شأن أيام السرور والأمل وقبيل الموعد المحدد لعقد القران وقع الاختيار على محسن للسفر فى بعثة إلى أوربا لإعداد درجة الدكتوراة . . واتفقا على تأجيل حفل القران عدة أشهر يعود بعدها محسن لأرض الوطن ليتم عقد القران والزفاف فى ليلة واحدة ، ثم يسافر الاثنان معاً إلى الخارج لقضاء شهر العسل حيث يتم محسن دراسته . . .

إنها لا تزال تذكر يوم سفره . . كان يبدو فرحاً سعيداً . . يردد . . « سأعود بعد شهور . . لأصحبك . . لتكونى معى وبجوارى طول العمر ، لن أقول وداعاً . . إنها أسابيع قليلة . . ستمر بسرعة . . وسأوالى الكتابة إليك يومياً . . وتعلقت به والدته وهى تبكى وتقول له « لا تسافر . . أنت وحيدى . . وأنا لا أستطيع الحياة بدونك ! . . تستطيع أن تعد لدرجة الدكتوراه هنا فى مصر . .

لا تسافر . . أريدك أمام عينى . . لا أستطيع فراقك !

وعندما حانت لحظة الوداع انحنى على رأس والدته فقبله ، وقال لها « سامحينى ياوالدتى . . سأعود بعد فترة قصيرة . . لأراك فى صحة جيدة . . وستكون إلهام بجانبك عوضاً عنى . . » .

وجلست والدته صامتة برهة قصيرة ثم نظرت إلى ابنها فجأة وقالت له : « مع السلامة وليوفقك الله . . »

وودعت إلهام خطيبها وهى تشعر فى أعماقها شعوراً غريباً كئيباً . . أنها قد لا تراه بعد ذلك اليوم . . شعوراً لا تدرى مصدره . . لكنه كان شعورها على أية حال فى تلك اللحظات . .

وأفاقت إلهام من تأملاتها وذكرياتها لتجد نفسها أمام شجرة البرتقال . . وخالجها شعور عجيب . . اندفعت نحو الشجرة . . ووقفت تتأملها وقرأت هذا التاريخ منقوشاً عليها ١١ من ديسمبر سنة ١٩٦٢ التاريخ نفسه الذى نقشته مع محسن يوم إعلان الخطبة . .

لقد استطاعت الأيام أن تحرمها خطيبها . . ولكنها لم تستطع أن تمحو ذلك التاريخ .

غالبت الرغبة فى البكاء . . لكن دمعتين حزينتين استطاعتا أن تنسابا فى رفق على وجنتيها بالرغم عنها وأخرجت منديلها الحريرى الصغير تجفف به دموعها . . وهنا شعرت بزوجها يربت على كتفها ، ثم لا يلبث أن يضمها إلى صدره . . وكانت قد نسيت فى غمرة الذكريات أنه يقف بجانبها ، ولم تستطع أن تبدى تفسيراً معقولاً لموقفها . . شعرت بصداع شديد ، وأحست بالأرض تميد تحت قدميها ، واكتست الدنيا فى عينيها غلالة سوداء ، ونظرت إلى زوجها وقالت له بعبارة تخنقها العبرات : إننى متعبة ياصلاح . . هيا بنا . .

فنظر إليها فى دهشة وقال . « لقد ذهبت الخادمة لتحضر لنا كرسيين وقدحين من الماء كطلبك . . وها هى ذى قد حضرت فيجمل بنا أن نستريح إذن قليلاً ثم نستأنف السير .

وأقبلت أم السعد – وكان هذا هو اسم الخادمة – تحمل صينية بها أقداح القهوة والماء . . وبجانبها يسير صبى صغير يحمل كرسيين من الكراسى الخفيفة .

ونظرت إلهام إلى أقداح القهوة وطاف بذهنها هذا السؤال : هل تعرفت عليها أم السعد برغم مضى ثلاثة عشر عاماً على آخر مرة وطئت فيها قدماها عتبة القصر ! وإذا كانت قد عرفتها . . فهل ستظل على صمتها أو أنها ستطلق لسانها وتحدثها أمام زوجها عن الماضى البعيد ؟

ورفعت إلهام بصرها فالتقت عيناها وعينا أم السعد ، وقرأت فى عينيها قصة السنوات التى قضاها سكان القصر فى حزن . . وقرأت فى عينيها أنها عرفتها ولكن لم تشأ أن تصرح بذلك أمام زوجها . . فاطمأنت نفسها ، وجلست ترشف القهوة .

وبعد نصف ساعة كانت إلهام قد استعادت هدوءها ورباطة جأشها وضغطت على يد صلاح ، وطلبت منه أن يستأنف السير ، ووقفت تلقى على شجرة البرتقال نظرة أخيرة . . . ١١ من ديسمبر ١٩٦٢ . . تاريخ لا يمكن أن تنساه . .

وفى طريق خروجها رفعت بصرها إلى نوافذ القصر ، واستطاعت أن تلمح فى إحداها سيدة تلبس نظارة . . لقد تسلل الشيب إلى رأسها فأحال سواده إلى بياض يحكى بياض الثلج . . إنها والدة محسن . . فلشد ما غيرها الزمن . . لقد أصبحت حطاماً يعيش على الذكريات .

ومرة أخرى امتدت يد إلهام إلى منديلها الصغير تجفف به دمعتى رثاء لقلب الأم الذى حطمه الحزن . . وفى ابتهال صامت رفعت عينيها إلى السماء تطلب لها من الله السلوان . . .

وعندما اجتازا باب الحديقة وقف صلاح ليقول فى صوت خفيض حاول أن يبدو طبيعيًّا ! لقد كان ساكن هذا القصر إنساناً فاضلاً انطفأت شمعة حياته وهو فى ربيع العمر » .

وما إن سمعت إلهام هذه الكلمات حتى انتفض جسدها وسألته : أو تعرفه ؟ فانساب صوته هادئاً حزيناً : نعم . . التقينا معاً فى الدراسة فى الجامعة . . وفى البعثة . . كان رقيقاً عطوفاً . . ذكيًّا لماحاً . . صادق الأخوة . . شديد التدين . . نموذجاً للإنسان الفاضل . . لم تنتقص الثروة التى تركها له والده شيئاً من خلقه وأصالته . . فى بعض الأمسيات كنا نجلس معاً بعد أن نفرغ من البحث والقراءة . . كنا نتحدث فى كل شىء . . لقد حدثنى كثيراً عن خطيبته التى تركها فى مصر ، كان يرى فيها نموذجاً للخلق الرفيع .

وأحست إلهام بقشعريرة تسرى فى جسدها والتفتت إلى زوجها متسائلة : هل ذكر لك صديقك اسم خطيبته . . . « وتعلقت أنظارها بشفتيه . . تنتظر الجواب ، واتخذ صلاح مكانه فى مقعد القيادة قبل أن يجيبها فى هدوء وهو يحاول جاهداً أن يخفى ابتسامته : لم يذكر لى اسمها ولكننى إثر عودتى من البعثة سألت كثيراً وتحريت حتى . . . وأردف قائلاً فى صوت خفيض أقرب ما يكون إلى الهمس « حتى عثرت عليها » وشهقت إلهام . . وارتفعت الدماء غزيرة إلى وجنتيها فى اللحظة التى امتدت فيها يد صلاح تداعب شعرها وانطلق صوته فى جد : صدقينى يا إلهام ! . . إننى اكتشفت فيك الليلة وفاءً نادراً . . إننى أحترم هذا الوفاء وأحنى رأسى تقديراً له .

وانطلقت السيارة بهما إلى الإسكندرية .

خيال امرأة

وضعت فتحية الكتاب تحت الوسادة وأطفأت النور وأغمضت عينيها ، ودقت الساعة الثانية عشرة مساء ، الواحدة ، الثانية صباحاً . ومع ذلك لم تفلح فى جلب النوم إلى عينيها . . كان يلح عليها سؤال واحد . . ترى ماذا يفعل زوجها فى ذلك الوقت ؟ . إنها تتصوره بالروب دى شامبر يجلس فى مقعده المفضل بجوار المدفأة بجانبه راديو ترانزستور صغير يدير مفاتيحه بحثاً عن محطات تذيع موسيقى كلاسيكية بعد منتصف الليل . . حتى إذا فرغ من ذلك تحول إلى مسرحيات من الأدب العالمى يلتهم صفحاتها وهو يدون ملاحظاته عليها من وقت لآخر . . كان ذلك عندما كان يضمها عش واحد . . كانت تجلس أمامه للاستماع معه إلى الموسيقى ، ثم تأخذ فى قراءة الصحف والمجلات وبعض الروايات البوليسية . . أما الآن وهو يعيش وحيداً . . ترى هل مازال يجلس فى المكان نفسه تعلو شفتيه الابتسامة نفسها ؟

وأخذت تسأل نفسها : هل سيأتى اليوم الذى تعود فيه إلى منزلها ؟ ومتى يأتى ؟ . وهل يقبل أن يحضر إليها فى منزل والدتها يلتمس رضاها ويطلب منها

العودة ؟ هل من الممكن أن يحدث هذا ؟ إن والدتها ما فتئت تؤكد لها أن هذا سيحدث يوماً ما ، وحجتها فى ذلك أن (رشدى) يحبها ولا يمكن أن يستغنى عنها وأن المسألة مسألة وقت لا أكثر ولا أقل . !

لقد مر عليها الآن ستة أشهر وهى تسمع هذا الكلام تشبثت خلال هذه المدة بالصبر والأمل ، كلما دق جرس الباب خيل إليها أن (رشدى) بالباب جاء يرجوها أن تعود إلى المنزل ، بل يذهب بها الخيال أحياناً فتتصوره وهو مقبل عليها يفتح لها ذراعيه ويتلقاها بالقبلات !

وما من مرة وفد عليهم أحد أقاربها وتطرق الحديث إلى موضوع رشدى حتى بدت لها بارقة أمل ، وظنت أنه موفد من قبل زوجها ليجس النبض ، أو يمهد للصلح ، ولكنها سرعان ما كانت تصدمها الحقيقة المرة وتبخر آمالها . ولا تترك لها سوى الحسرة !

إنها لا تزال تذكر ظروف ذلك اليوم المشئوم . كان أول الشهر وعاد زوجها من الشركة متهللاً كعادته ، ولكنها نظرت إليه متجهمة ، وأخبرته أن زمن العطف على الأقارب قد ولى وانتهى أمره ، وأنها لن تسمح له بعد ذلك بمعاونة شقيقته الأرملة ، إنها لن تبقى فى المنزل دقيقة واحدة طالما أنه يبذر مرتبه وينفقه على أهله . إنها لا تزال تذكر كيف بدا وجهه شاحباً حزيناً وهو يحاول فى هدوء أن يثنيها عن عزمها مغادرة المنزل . ولكنها طبقاً لمشورة والدتها تحته جانباً وخرجت من المنزل على أمل أن يلحق بها بعد ساعات يسترضيها ويلبى رغباتها !

ولكن ها هى ذى الساعات توالت وتوالت معها الأيام والشهور دون أن يفكر فيما يبدو فى اللحاق بها . . إنها تعلم يقيناً أن (رشدى) يحبها حبًّا عميقاً . لكن هل من الممكن أن تظل جذوة هذا الحب متقدة طول هذه المدة ؟ ليس من العسير على شاب فى مثل سنه ومركزه أن يجد فتاة أخرى تملأ عليه قلبه وحياته ! .

لقد سمعت منذ بضعة أيام إشاعة تؤكد اعتزامه الزواج فى القريب العاجل . . وأخذت تتصور ما يمكنُ أن يحدث لو صدقت الإشاعات وتزوج غيرها فعلاً . . ماذا سيكون مصير مجدى ؟ . . وعندما وصل بها التفكير إلى ابنها مجدى أحست برعشة تسرى فى جسدها ! . .

إنها لا تستطيع أن تتصور كيف يعيش مجدى مفارقاً ، يُحْرَمُ عطفَ الأب فترة من حياته ثم يحرم عطفها هى باقى أيام صباه ؟

وأخذت فتحية تسأل نفسها ما الذى يحول بينها وبين زوجها ؟ .

وأحست بهاتف يصيح بها « لا شىء » ! . . لا شىء ! وأخذ صوت الهاتف يرتفع ويهيئ لها أن جدران الحجرة تردد « لا شىء يحول بينك وبين العودة إلى زوجك ! »

وتساءلت لكن كيف . . ؟

وفجأة ومض فى ذهنها خاطر . .

إن زوجها يخرج من الشركة فى تمام الساعة السادسة . . ووالدتها ستكون فى ذلك الوقت عند طبيب الأسنان كما أخبرتها بالأمس . .

إنها تعلم أن زوجها يسلك باستمرار طريقاً واحداً لا يغيره . . فماذا عليها لو خرجت فى ذلك الوقت للتنزه وتسير فى ذلك الطريق كأنها تستعرض واجهات المحال التجارية ؟ . .

أغلب الظن أنها ستلاقيه . . سيلقى إليها بتحية المساء وستردها بأحسن منها ! ونظرة فابتسامة ثم تعود المياه إلى مجاريها . !

إنها ستصحب معها ابنها لعل وجوده معها يشجع والده على الحديث !

وعندما وصل تفكير فتحية إلى هذا الحد شعرت براحة عميقة ، وعندما دقت الساعة الثالثة صباحاً كانت قد أسلمت عينيها إلى نوم عميق .

وعندما غادرت المنزل الساعة الخامسة مساء اليوم التالى كان يبدو على فتحية الاهتمام الشديد كانت تجتاحها موجة من القلق والتردد : هل تنفذ الخطة أو تؤجلها ؟ هل سيقدر لها النجاح أو سيحتقرها ولا يلقى إليها بالاً ؟

وكانت الساعة تشير إلى السادسة تماماً عندما كانت فتحية تسير الهوينى فى طريق زوجها المعتاد . . أخذت تتفرس فى وجوه المارة حيناً وفى واجهات المحال التجارية حيناً آخر . .

ذرعت الشارع ثلاث مرات جيئة وذهاباً . ولكنها لم تلمح زوجها . . .

وأحست بنفسها مشدودة بقوة خفية لا تستطيع مقاومتها نحو منزلها – منزل الزوجية . . .

اقتربت من المنزل وأخذ قلبها يخفق بشدة . . إنها لم تقترب من هذا المنزل الشهور الطوال . . وقفت ترقب المنزل من بعيد . .

إن (عم عبده) البواب مازال فى مكانه المعتاد بجوار باب المنزل ، وفجأة رفعت بصرها إلى شقتها . . كانت حجرة الاستقبال مضاءة والنافذة مفتوحة . . ولمحت فتحية سيدة لم تستطع تبين ملامحها تمر بسرعة أمام النافذة . .

فى هذه اللحظة أحست بقلبها يعتصر ، وبحركة آلية أدارت وجهها وأخذت تعود أدراجها نحو منزل والدتها . .

ونظرت إلى مجدى فإذا به يرمقها بنظرة متسائلة ، فربتت على كتفه وقبلته ، ودفعت إليه بقطعة من الحلوى . . كانت تتوقع منه بين لحظة وأخرى أن ينفجر باكياً ويسأل عن أبيه ، ولكنه فى تلك اللحظات بدا هادئاً صامتاً ، وكأنه يقدر رهبة الموقف ، ويقرأ ما يدور فى رأس والدته من أفكار ويحس بما يصطرع فى نفسها من مشاعر وأحاسيس ! .

أيقنت فى تلك اللحظة أن هناك امرأة أخرى دخلت حياة زوجها ، إن قصة

زواجه من غيرها لم تكن إذن إشاعة أو خرافة ، وبدت المصابيح أمامها فى الطريق كأشباح متراقصة ! أقلتها أول سيارة أجرة صادفتها وعادت إلى المنزل . . وبعد لحظات كانت تصعد درجات سلم منزلها لاهثة الأنفاس وابنها متعلق بذراعها ، وما إن ولجت الشقة واستبانت أن والدتها لم تحضر بعد حتى تنفست الصعداء ، وخلعت ملابسها وارتمت على السرير وانفجرت باكية . .

ووقف مجدى يتأمل هذا المنظر ، وأخذ يبكى هو بدوره ثم قفز إلى جانبها وأخذ يقبلها وامتزجت القبلات بالدموع !

وأحست فتحية بعد أن بكت طويلاً أنها استراحت ولم يعد هناك ما يزعجها ، أخذت تجفف دموعها ودموع مجدى ، وطفقت تروى له بعض الأقاصيص حتى استسلم للنوم .

وبعد نصف ساعة وصلت والدتها ، كانت تبدو منشرحة منهللة على غير عادتها فى الأيام الأخيرة ، حيث ابنتها ثم طبعت على جبينها قبلة ، ولمحت على وجهها آثار الدموع فربتت على خدها وقالت :

– إن (رشدى) سيحضر بعد قليل ليصطحبك ومجدى إلى منزلكم ، فأرجو أن تقابليه مقابلة طيبة . وتعودى معه ، إنه شاب طيب على أية حال . . وأفضل كثيراً من غيره . . . ونظرت إليها ابنتها وهى كالمذهولة وسألتها :

– هل أنت متيقنة أنه سيحضر بعد قليل ؟

فأجابتها وفى صوتها نشوة الفرح وفى عينيها بريق السعادة :

نعم متيقنة ياعزيزتى ! لقد أسعدتنى صحبتك هذه الفترة . . لكن يسعدنى أكثر أن تكونى فى منزلك هانئة مستريحة ، وعليك الآن أن تعدى ملابسك ولا داعى للانتظار حتى الصباح . . إن (مجدى) فيما يبدو نائم ، لكن من الممكن أن تحملاه معكما إلى المنزل . . .

وجلست فتحية برهة قصيرة وهى لا تعرف بماذا تجيب ؟ هل تخبر والدتها بما رأته مساء اليوم أو تطوى هذا السر بين جوانحها ؟ .

وأخيراً وجدت نفسها تقول :

– إننى ياوالدتى لن أعود . . نعم لن أعود . . أرجو ألا يزعجك هذا القرار لقد انتبهت إليه منذ لحظات . . إن (رشدى) لم يعد ملكاً لى . . لقد تحول قلبه ودخلت حياته امرأة أخرى !

– ولكنه سيحضر بنفسه ليسترضيك وتعودى معه !

– لعله سيحضر حتى يكفى نفسه مئونة النفقة والوقوف أمام المحاكم . . كلا . . لن أعود . .

– لقد تركتك منذ ساعتين . ولم يكن فى ذهنك مثل هذه الأفكار السوداء . . لا حول ولا قوة إلا بالله !

– هذا هو قرارى الأخير .

ووقفت والدتها تتأملها لحظة ، ثم ألقت بسهمها الأخير :

هل تنكرين أنك تحبينه . . هل تنكرين أنك كنت لا تنامين الليل فى الأسابيع الأخيرة ، وكنت تحتفظين بصورته معك باستمرار وتضعينها تحت الوسادة كلما أقبل الليل : ما الذى حدث ؟ .

– حدث أنه كان يستقبل مساء اليوم سيدة فى منزله

– لكن من أين لك هذه الأخبار ؟ .

وارتمت فتحية على مقعد قريب وأجابت فى عصبية ظاهرة :

– إننى متيقنة من كل كلمة قلتها يا والدتى ولا داعى للإحراج !

وردت والدتها فى هدوء . . لقد كانت هناك سيدة فعلاً فى زيارة (رشدى) مساء اليوم لكنها لم تسلب منك قلبه كما تتصورين . . لقد لاقيت (رشدى) عرضاً

مساء اليوم وهو فى طريق عودته إلى منزله فألح على أن أتناول عنده فنجانا من القهوة وخاصة أن والده كان فى ضيافته ويريد أن يتحدث معى ، ورأيت ألا أرفض الزيارة فهل تعتقدين أننى أخطأت فى هذا التصرف ؟

ووقفت فتحية كالمذهولة وقد عقدت المفاجأة لسانها وفى هذه اللحظة دق جرس الباب ، فأسرعت تصفف شعرها ، وتصلح هندامها وتزيل آثار الدموع من وجنتيها !

القمر يبتسم

نظرت إلى ساعتى ، كان الليل قد انتصف . . ومع ذلك فلم تكن لدى رغبة فى مغادرة المكان . . . كان صديق الدكتور عادل الذى عاد لتوه من مهمة علمية من الخارج مسترسلاً من وقت لآخر ، فيروى لى بعض ذكرياته ومشاهداته خلال رحلته . . . كان حديثه عذباً تمتزج فيه الفكاهة بالواقعية . . وكان النسيم عليلاً . . والقمر بدراً يتوسط السماء فينعكس ضوؤه على صفحة البحر ، كنت أرقب الموج الذى يتهادى حتى يصل إلى رمال الشاطئ . . . ثم ما يلبث أن ينحسر ويعود أدراجه وقد شدتنى حركة الموج هذه ، فظللت أتأملها فترة من الوقت . . إلى أن قال لى صديق الدكتور عادل : . . . لماذا ننظر تحت أقدامنا ؟ . . ألا يعجبك منظر القمر ؟ هذه سحابة تريد أن تقترب منه . . انظر إليه إنه يبتسم . . . يبدو أنه يرحب بمقدم السحابة . . . ولا يعرف أنها ستحجب ضوءه عنا لحظات . . !

وطلبت كوبين من عصير المانجو المثلج . . وقلت : لا عليك ! إنك تتأمل القمر . . وأنا أتأمل الموج . . حتى نخرج من هذه الجلسة بقصيدة شعر عن الموج

والقمر . . وضحكنا . . .

وبعد لحظات تناهت إلى سمعنا أصوات ترتفع عند باب الكازينو . . . التفتنا إلى الباب . . فإذا أحد العمال يحول بين أحد الباعة الجائلين وبين الدخول . . . وهو يردد ليس هذا وقت بيع . . نحن الآن فى منتصف الليل . . . !

ونظر عادل إلى الشاب الذى كان يحمل بعض أجهزة الراديو الترانزستور . . . وبعض أكياس الشيكولاتة والحلوى . . ولعب الأطفال . . وأخذ يتفرس فيه هنيهة ثم هب واقفاً واتجه نحوه وقال :

حسنى ؟ أليس كذلك ؟ . .

وهنا انفرجت أسارير الشاب ، وقال فى توسل وضراعة :

الحمد لله على السلامة يا دكتور . . هل تسمح لى بالدخول . . معى شيكولاتة للأولاد و . . و . . . ولم يدعه عادل يتم كلامه ، وإنما أخذه من يده واقتاده إلى حيث كنا نجلس . . ولما شاهد العمال ذلك المنظر انصرف كل منهم إلى عمله فى هدوء . . كانوا يحبون الدكتور (عادل) ويجلونه . . ولم يكن أحد يجرؤ على إغضابه . . .

نظر عادل إلى حسنى وقال ما أخبارك ؟ .

ورد الشاب : معى راديو ترانزستور . . شيكولاتة . . لبان . . هذه اللعب . . أقلام حبر فاخرة . .

وسكت عادل وهو يتأمله أنا لا أسأل عن ذلك . . أنا أريد أن أعرف هل نجحت فى دراستك . . .

وبدا على وجه الشاب بعض الألم ثم انفرجت أساريره . . وهو يجيب :

لقد حصلت على البكالوريا بتفوق كبير . . برغم الظروف القاسية التى مرت بى . . لكننى لن أستطيع الالتحاق بكلية الطب . . إن مدة الدراسة بها طويلة

وتحتاج إلى مصروفات ، ووالدى الآن فى ظروف صعبة . . .

ونظر عادل إلى الأشياء التى يحملها الشاب ، وأخذ جهاز الراديو ووضعه على المائدة ، ثم انتقى مجموعة من علب الشيكولاتة والحلوى . . وأخيراً أخذ قلمين . . ووضعها بجوار هذه الأشياء . وهو يردد : أصناف ممتازة حقًّا !

كنت فى حيرة من أمرى . . هل أضغط على يده لأمنعه من التورط فى الشراء ؟ . . .

إننى أعرف أن (عادل) عاد من الخارج محملا بكل هذه الأصناف من الهدايا . . وأنا شخصيًّا كان نصيبى منها راديو ترانزستور . . وعلبة من الشيكولاتة الفاخرة . . لكن هذه مسألة شخصية . . والشاب يبدو فى محنة . .

وظللنا برهة قصيرة صامتين . . وقطع عادل حبل الصمت . . بأن صفق بيديه وطلب كوباً ثالثاً من عصير المانجو . . وقال للشاب تفضل اجلس . . ياحسنى . . يادكتور حسنى ستكون طبيباً إن شاء الله . .

ونظر حسنى إلى الأشياء التى وضعها عادل على المائدة . . وقال : هل يلزمك شىء منها ؟ وتبسم عادل فى هدوء . . وهو يرد فى صوت خفيض : لقد جئت فى الوقت المناسب . . بعض أقاربى لم أحضر لهم هدايا معى من الخارج . . . لماذا تظل واقفاً هكذا . . :

بدا الشاب كمن يذوب خجلاً . . وبعد طول تردد جلس على طرف المقعد . . . وبعد قليل أحضر الجرسون كوب المانجو المثلج فوضعه عادل أمامه . .

وأخذت أنقل بصرى بين حسنى وهو يرتشف عصير المانجو فى هدوء وعادل الذى تظاهر بأنه يفحص مشترياته ويحرك أزرار الراديو الترانزستور وبين القمر الذى قال عنه عادل : إنه كان يبتسم فى تلك الليلة ! . . .

فرغ الشاب من احتساء عصير المانجو وانتصب واقفاً : أنا أستأذن . . هل تسمح

لى بالانصراف ؟ وتجاهل عادل هذا السؤال وأخذ يتفحصه وهو يقول : لم تخبرنى ما الظروف الصعبة التى يعانى منها والدك هذه الأيام ؟ . . .

وقبل أن يرد حسنى . . طرح عادل سؤالا آخر : ماذا يعمل والدك ؟

– كان صاحب فرن . . أعنى مخبزاً . . ومرض وساءت حالته المالية . . واضطر لبيع الفرن . .

– فرن . . مخبز . . عجباً . أين هذا الفرن ؟

– لقد باعه والدى وقضى الأمر . .

– أعرف ذلك . . لكن أريد أن أعرف موقع الفرن . . هل هو فى حى رأس التين ؟ . .

– نعم . .

– بجوار الترام . .

– نعم . . لكن . . لكن سيادتك . .

– أجبنى ما اسم والدك ؟ إنك لم تخبرنى باسمه من قبل . .

– والدى كان اسمه المعلم زكى . . أما الآن . . فلم يعد معلماً . . اسمه زكى فقط زكى مصطفى . . المريض زكى مصطفى ! . .

وانحدرت دمعتان على خدى حسنى وهو يقول : لقد أصيب والدى بتخشب فى المفاصل . . لا يستطيع الحركة . . أنفق الكثير فى العلاج . . وهو الآن فى حاجة إلى عملية . . . لكنها عملية تحتاج إلى طبيب كبير ومصروفات كثيرة . . لا قبل لنا بها . . الأمر لله . . عن إذنك يادكتور . .

واستوقفه عادل وهو يتفرس فيه جيداً : هل ما زالت أسرتك تقيم فى المنزل المجاور للفرن . .

– عجباً . . سيادتك تعرفنا من قبل .

– والدتك الحاجة نبوية . . أليس كذلك ؟

– بلى بلى .

وهنا انتصب عادل واقفاً وهو يتمتم : . . . كيف فاتنى أن ألحظ الشبه الشديد بين الابن وأبيه .

ووضع عادل يده على كتفى وهمس فى أذنى : أرجو أن تصحبنى فى سيارتى فى رحلة قصيرة : سنتوجه إلى شاطئ رأس التين . . إننى لم أر ذلك الشاطئ منذ سنوات . . . أرجو أن توافق وقبل أن أجيبه قال لحسنى : فى هدوء : سأشترى منك هذه الأشياء . . . أرجو أن نتعاون فى حملها إلى السيارة . .

ولم يفتنى أن أنبه (عادل) إلى أنه لم يدفع ثمن مشترياته . . فابتسم . . وقال : أشكرك لكننى لم أنس . . إن الرواية لم تتم بعد فصولاً ! . .

وأمام الباب وقف عمال الكازينو مبهورى الأنفاس وهم يشاهدون الدكتور (عادل) الطبيب المشهور وهو يفتح باب سيارته المرسيدس الخلفى ويقول له تفضل . . على حين جلست أنا على المقعد المجاور له . .

لم تكن حيرتى أقل من حيرة ذلك الشاب حسنى . . البائع الجائل . . الذى لم أره من قبل والذى يقول له عادل : إنه سيصبح طبيباً مثله . .

ويبدو أن (عادل) أحس بتساؤلاتنا . . فأدار مفتاح الراديو فى سيارته . . وانساب صوت موسيقى كلاسيكية هادئة . . كانت رحلة قصيرة بالسيارة لكنها كانت ممتعة . . الشاطئ على الجانب الأيمن ، ينعكس على صفحة البحر أضواء القمر . . وعلى الجانب الأيسر صفٌ لا ينتهى من المنازل بعضها حديث البناء . . وبعضها مضى على بنائه ما يقرب من سبعين عاماً ومع ذلك فقد بدت كلها شامخة أنيقة ! .

وقبل أن تصل السيارة إلى رأس التين خفف عادل من سرعته ثم انعطف

شمالاً . . وأخذ حسنى يردد . . أشكرك . . لكن لا داعى للتعب . . ممكن أن أحضر والدى لسيادتك فى الصباح فى المستشفى . . أو بعد الظهر فى عيادتك . .

ولم يرد عليه عادل ، وإنما أخذ يتمتم : الحمد لله إن ذاكرتى مازالت قوية الفرن فى الشارع التالى على اليمين . . نعم هنا والمنزل مجاور له . . إننى لم أضل طريق . . كيف أنسى طريق العمر ؟ وأوقف عادل السيارة بعد أن أضاء أنوارها . . وهبط وهبطنا معه . . . وحضر جندى الدورية وهو يصرخ . . قف . . من هناك . . ؟

وأخذ الجندى يتفرس فى السيارة ثم أخذ يتأملنا نحن الثلاثة . . ثم رفع يديه بالتحية . . أفندم يادكتور . . أى خدمة . . ؟

طرق حسنى الباب . . وسمعنا همهمة من الداخل . . وانبعث صوت سيدة عجوز تقول : ادخل ياحسنى . . لماذا تأخرت الليلة ؟

ودخل حسنى بمفرده بادئ الأمر ثم قال : تفضلا . . هذه خطوة عزيزة . لكن منزلنا لا يليق باستقبالكم . . أنا آسف !

ورفع عادل صوته وهو يقول : أين المعلم زكى . . المعلم زكى مصطفى . .

وفى هدوء دلف مع حسنى إلى الحجرة التى كان ينام فيها المعلم زكى . . . وبقيت أنا فى الصالة خارج الحجرة .

سمعت بادئ الأمر حواراً خافتاً ثم مالبث أن جلجل صوت عادل بالضحكات . . . وبعد قليل كنا نتهيأ للانصراف . . وقبل أن نغادر المنزل . . قال عادل لحسنى : لا تنس عنوان العيادة ، خذ هذه البطاقة بها العنوان والتليفون . . إنك ستتمرن من الغد على الجهاز الذى أحضرته معى من الخارج ، وبعد أسبوع ستكون خبيراً فيه . . وفى أثناء الدراسة تعمل معى فى العيادة : ساعتين . . أما طوال فترة الصيف . . فستعمل معى طوال الوقت . .

وتركنا (حسنى) فى منزله وهو كالمشدوه . . وقفلنا راجعين بالسيارة . . كان البحر هذه المرة على يسارنا والمنازل على يميننا . .

وفى الطريق قال لى عادل : لعلك تذكر أننى أشرت فى كتابى الذى ألفته بعنوان ذكريات طبيب أننى عملت فترة من الأوقات وأنا طالب فى كلية الطب كاتباً بأحد المخابز . . كان والدى قد توفى . . وترك لنا معاشاً ضئيلاً كان لابد أن أعمل حتى أعول والدتى وأحصل على نفقات الدراسة ولوازمى الشخصية . كان المعلم زكى كريم الخلق . . عندما اقترب موعد امتحان البكالوريوس . . . أعطانى إجازة ثلاثة أشهر بمرتب كامل . . واشترى لى بذلة مازلت أذكرها . . بذلة كحلية اللون . . لقد زرته بعد تخرجى مرة ومرات . . وأحضرت له بعض الهدايا . . لكننى شغلت فى السنوات الأخيرة عنه . . عشر سنوات كاملة لم أزره ولم أسمع عنه شيئاً . كان ذلك تقصيراً منى لا شك . . لكن أحمد الله أن زيارة الليلة جاءت فى الوقت المناسب .

إن الجهاز الذى اشتريته ثمنه عشرة آلاف دولار . . ترى هل كنت أملك شراءه لو لم أكن أستاذاً فى كلية الطب . ولو لم أكن أول دفعتى عند التخرج ؟ وهل كنت سأصبح أول دفعتى لو لم يمنحنى المعلم زكى إجازة البكالوريوس بمرتب كامل ؟ . .

وتنهد الدكتور عادل ثم توقف قليلاً وقال . . انظر إلى القمر . . إنك لا تستطيع أن تنكر هذه المرة أنه يبتسم !

فنظرت إليه وقلت . . نعم . . إنه يبتسم ! . . .

ليلة العيد

الليلة ليلة العيد . . والشمس تؤذن بالمغيب وقد خلت طرقات القرية من المارة أو كادت وتجمعت كل أسرة حول الإفطار فى انتظار صوت المؤذن ينطلق فى أرجاء القرية معلناً غروب آخر يوم من أيام رمضان . .

وفى منزل الحاج جمعة كان الحاج يجلس إلى الطعام وهو يحرك حبات مسبحته ، ويتمتم ببعض الأدعية والتسابيح المعروفة فى رمضان ، وبجواره كانت تجلس زوجته هنية وبنته خديجة وبنت أخيه نفوسة أما ولداهما الصغيران مدبولى وعلى فقد كانت مهمتهما مراقبة الطريق خارج الدار ليعلنا للأسرة نبأ وصول الباشمهندس ، وكان لقب الباشمهندس هو اللقب الذى تطلقه الأسرة على ابنها الأكبر منير منذ تخرج من كلية الهندسة فى العام الماضى ، وكان الناظر إلى الحاج جمعة يستطيع أن يلحظ دون عناء استغراقه فى تفكير عميق . .

لم يكن ما يشغل بال الحاج هو تأخير وصول منير فهو قد وعد من الزيارة الماضية أن يكون حضوره هذه المرة ليلة العيد ليقضى الإجازة مع أسرته ، وهو

لاشك سيبر بوعده ، ولم يكن يقلق الحاج كذلك أمر الجنيهات الثمانية التى تعود منير أن يبعث بها بالبريد فى أول كل شهر معونة لأسرته ، لأنه واثق أنه سيحضر المبلغ معه بنفسه ، بل قد يضاعفه بمناسبة العيد ، وهو يعلم أن أخته خديجة مخطوبة إلى ابن عمها وفى حاجة إلى تكاليف الزفاف ! لكن الذى كان يشغل بال الحاج ويقلقه حقًّا هو كيف يفاتح ابنه فى الموضوع الذى انتهت الأسرة إلى قرار فيه منذ أسبوع . . ؟

لقد ارتأى الحاج بثاقب بصره أنه لكى يضمن سعادة بنته خديجة فى زواجها من ابن عمها مسعود أن يخطب لابنه منير بنت عمه نفوسة ، وبذلك يكون قد رد الجميل لأخيه وضمن سعادة الأسرة أبد الدهر ! إنه يعلم أن شقيقه الحاج عبد الله أكثر ثراء منه فهو يمتلك سبعين فداناً والحاج جمعة لا يمتلك إلا ثمانية فقط ، لكن ابنه منير أصبح « باشمهندس » ويتقاضى مرتباً يقرب من الأربعين جنيهاً كما أن نفوسة بنت عمه تحن إليه منذ صباها .

ولم يستطع الحاج جمعة أن يكتم فرحته بهذه الفكرة التى طرأت له ، فعرضها على زوجته التى رقص لها قلبها طرباً ، وألحت عليه أن يذهب إلى شقيقه ويفاتحه فى الأمر حتى يضمن سعادة خديجة وحسن معاملة زوجها لها فى المستقبل . .

وتردد الحاج فى بادئ الأمر : فما يدريه أن ابنه وقد عاش السنين الطوال فى القاهرة لا يرى القرية إلا فى إجازة الصيف سيقبل الزواج من بنت عمه التى لم تذهب للبندر إلا بضع مرات فى حياتها . ولكن زوجته ألحت عليه فى أن يعرض الفكرة على أخيه ومتى ضمن موافقته وهو أغلب الظن سيوافق فسيكون من السهل إقناع منير بإتمام الخطبة بل عقد القران فى إجازة العيد ! .

ولم يخيب الحاج عبد الله ظن شقيقه وزوجته فأبدى اغتباطه الشديد بالفكرة . وذكر أن هذا الموضوع لا يستطيع أن يعارض فيه ، لأنه يذكر أنه قرأ فاتحة منير على

خديجة منذ كانا طفلين فى المهد وهو لايستطيع الفكاك من هذه الفاتحة . . وبرغم أن الحاج جمعة لم يكن يذكر فى تلك اللحظة أمر تلك الفاتحة فإنه أكدها بحماس بالغ وذكر أنه هو أيضاً لا يستطيع التحلل منها وأن هذا هو الذى دفعه لطرق الموضوع ! .

وعندما مد له الحاج عبد الله يده ليقرأ الفاتحة من جديد كان يشعر وكأن سعادة الدنيا كلها قد وضعت بين يديه . . وقبل أن يغادر المنزل كانت أكواب « الشربات » قد دارت عدة مرات ، وانطلقت زغرودة من قلب المنزل عرف فيها الحاج جمعة صوت زوجة أخيه . .

وعلى الباب وقف الحاج عبد الله يودع شقيقه ، وهمس فى أذنه ألا يلق بالاً لمسألة « الجهاز » فهو سيتكفل بجهاز العروسين معاً وسيزفان فى ليلة واحدة . .

ولما حاول الحاج جمعة الاعتراض ذكر له والابتسامة تعلو شفتيه أنهما إخوة وما بين الخيرين حساب ! . واتفقا على عقد القران فى أول أيام العيد . .

استعرض الحاج جمعة هذه الصورة وهو ينتظر وصول ابنه على أحر من الجمر وطاف بذهنه هذا السؤال : ماذا يكون الحال لو لم يحضر منير الليلة ؟ . . إذا لم يحضر فمعنى ذلك أنه لن يتم عقد القران غداً ! . لكن هذه مسألة من الممكن تداركها . . الذى كان يحيره حقًّا هو ماذا يكون الموقف إذا حضر منير ورغب عن إتمام الزواج على النحو الذى ارتضته أسرته ؟ وهنا أغمض الحاج عينيه ليبعد عن ذهنه هذا الخاطر ! . .

إنه لو فعل ذلك فسيكون ولداً عاقاً . . صحيح أنه معتد برأيه لا يميل كثيراً لسكنى الريف . . لكنه يحب أمه كثيراً . . ومازال للآن يقبل يديها كلما هم بالسفر ويطلب منها أن تدعو له بالخير . . . إن أمه هى التى ستتكفل بإقناعه ولم لا وهى

التى ألحت علىّ إلحاحاً أن أفاتح شقيق فى الموضوع ويحسم الأمر قبل أن يحضر (العريس) . . . ؟ .

وانساب صوت المؤذن فى القرية مؤذناً لصلاة المغرب ، فانتزع الحاج من أفكاره وخواطره . . ونظر حوله فوجد زوجته وبنت أخيه ترمقانه بنظرات حائرة فلم يزد الحاج عن أن قال : « لعله تأخر فى الطريق . . فلننتظر قليلاً . . » وقام الحاج ليصلى المغرب وقامت زوجته لتصلى معه . . أما خديجة فقد اعتذرت لوالدها بأنها لم تتوضأ بعد ، وانتحت جانباً بنفوسة وأخذت تحكى لها مشاهداتها فى القاهرة عندما كانت فى ضيافة أخيها منذ ثلاثة أشهر . . . وكانت نفوسة كلما جاء ذكر منير تغض من طرفها وتبتسم . . . ثم تعاود الحديث وتطلب من بنت عمها مزيداً من التفصيلات عن ليالى القاهرة ومباهجها . . . واستمرت الاثنتان فى حديث طويل لم يقطعه سوى صوت الحاج جمعة يدعوهما لتناول الطعام ، فقد يتأخر منير بعض الوقت وهما صائمتان . . وذكرت خديجة أنها ليست جوعى وأنها تفضل أن تنتظر شقيقها حتى يحضر ولو فى منتصف الليل واكتفت بأن تناولت كوباً من شراب قمر الدين الذى أعدته الأسرة من الصباح احتفاء بقدوم الباشمهندس ، وحذت نفوسة حذو خديجة ، وتناولت كوباً من شراب قمر الدين ثم استأنفتا الحديث . . وهمست نفوسة فى أذن خديجة أنها علمت من والدتها أن (مسعود) سيصبح مالكا لعشرين فداناً فى القريب العاجل . . لقد عزم والده على أن يهب له هذا القدر من الأرض منذ أيام وسيتوجه معه لمكتب الشهر العقارى عقب إجازة عيد الفطر مباشرة لإتمام الإجراءات . وهنا مالت نفوسة على بنت عمها فقبلت وجنتيها وعندما أذن المؤذن لصلاة العشاء عاد الصغيران مدبولى وعلى إلى المنزل . .وذكرا أنهما تعبا من طول الانتظار ومراقبة الطريق دون جدوى ، فطلبت منهما أمهما أن يستريحا قليلاً ثم يعودا إلى مراقبة الطريق حتى يكونا فى استقبال شقيقهما العائد . .

وفى هذه اللحظة دخل عامل التلغراف وهو يلهث وقدم للحاج جمعة برقية وطلب منه أن يوقع بالتسلم ووقع الحاج على الإيصال بصعوبة فهو لا يجيد القراءة ولا الكتابة . . ودفع بالبرقية إلى بنته خديجة لتفضها وتقرأها . . وهو يردد « اللهم اجعله خيراً . . » لابد أنها برقية من منير . . لعله تأخر فى الطريق ونظرت خديجة إلى أسفل البرقية : « نعم الإمضاء منير جمعة » .

وعندما أتمت خديجة قراءة البرقية كانت تبدو شديدة الامتقاع . . وسقطت البرقية . . وذهل الحاج جمعة وهو يرى هذا المنظر وهب واقفاً وسألها : ماذا حدث ؟ خبرينى . . هل أصاب منير مكروه . .

ولم تجب خديجة وإنما أعطت (مدبولى) البرقية وطلبت منه أن يقرأها على والده وأخذ مدبولى يقرأ « كل عام وأنتم بخير . . سيتم زفافى غداً إلى بنت مدير الشركة » .

ومرت فترة صمت قطعها الحاج جمعة بقوله « معذور . . لا يعرف ما كنا نفكر فيه . . ربنا يعينه » .

وتساءلت هنية : هل الحاج يعتزم حضور حفل الزفاف ؟ . فاغرورقت عيناه بالدموع . . وقالت : « إنه لم يدعنا إلى الحفل . . وهو فى هذا أيضاً معذور . . كان بودى أشهد حفل زفاف ابنى لكن أنا شخص أفهم الدنيا جيداً . . الحفل سيحضره ناس أكابر . . ولا يليق أن يحضر والد العريس بمثل هذه الملابس . . » وأشار الحاج إلى ملابسه . . » وأردف قائلاً :

« إن (منير) يعلم حياتنا المالية . . ولم يشأ أن يكلفنا شططاً بدعوتنا لحضور الحفل . . ولا تنس أن عليه أعباء كثيرة . . سيكلفه هذا الزواج مالاً كثيراً . . »

ونظرت هنية إلى زوجها وقالت « إذن ابعث إليه برقية تهنئة » .

وهنا تدخلت خديجة فى الحديث قائلة « لا داعى لإرسال برقية . . لقد أرسل

هو برقية لأننا كنا فى انتظاره . يكفى خطاب مستعجل يصله غداً بعد الظهر وأنا أحتفظ عندى بعدد من طوابع البريد .

وعلى الفور قامت خديجة إلى الحجرة المجاورة وعادت بعد قليل ومعها ورقة بيضاء وظرف وخمسة طوابع بريد . . وجلست تكتب إلى شقيقها رسالة على لسان والدها تهنئه فيها بزواجه وكانت تقرأ ماتكتب بصوت عال . . عن حين كان الحاج يتمتم . . « النصيب . . لا حول ولا قوة إلا بالله ! أنا لا أبحث عن مصلحتى . . كان يهمنى فقط مصلحته . . أنا أخشى عليه من هذا الزواج . . الأمر لله ! . . » وأغلقت خديجة المظروف وقالت لبنت عمها « هيا بنا نخرج لنشم الهواء قليلاً ونضع الخطاب فى صندوق البريد . . » .

وخرجت الاثنتان من باب المنزل تتكئ إحداهما على الأخرى وما إن ابتعدتا عن المنزل بضعة أمتار حتى مزقت خديجة الخطاب نصفين . . وتناولت نفوسة نصفه . . وأخذت كل منهما تكور نصف الخطاب الذى بيدها حتى استحال كرة صغيرة من الورق ، وعندما اقتربتا من النهر قذفت كل منهما بكرة الورق إلى الماء ووقفتا ترقبان الكرتين وهما يجرفهما التيار بعيداً عن الشاطئ ثم انفجرتا باكيتين ! .

اللحن الأخير

كانت الساعة الحادية عشرة ليلاً . . أغلقت المذياع ونهضت لارتداء ملابس الخروج ، ووضعت المعطف على يدى . . وبرغم أن الاستراحة كانت مزودة بكل وسائل الراحة . . فإن شعورى بالوحدة ولم يمض علىّ فى الفيوم إلا سبعة أيام جعلنى أبادر بالخروج إلى الطريق فى تلك الساعة من الليل وبرغم برودة الجو .

غادرت الاستراحة وتدثرت بالمعطف وأخذت أسير الهوينى أتأمل المدينة وقد لفها السكون وغشيها الظلام . . !

سرت بمحاذاء جدول ماء يخترق قلب المدينة . . وفجأة أبصرت أمامى بصيصاً من النور ينبعث من حجرة فى أعلى منزل . . كانت النافذة فيما يبدو مفتوحة ، وخيل إلى أننى أسمع صوتاً أو أصواتاً تنبعث من تلك الحجرة . .

عجباً ! نافذة مفتوحة فى مثل هذا الوقت من الليل وفى شهر ديسمبر بالذات ! . . وبدافع الفضول أخذت أغذ السير نحو ذلك المنزل . . اقتربت منه أكثر فأكثر . . كانت النافذة فعلاً مفتوحة . . وتناهى إلى سمعى صوت موسيقى عذبة

تنبعث من تلك الحجرة .

ودون أن أشعر وجدتني مسوقاً إلى باب ذلك المنزل . . وهناك وقفت برهة قصيرة . . أتأمل الموقف . أنا غريب فى هذه المدينة ، وبعد أسابيع قليلة ينتهى انتدابى بها ، وأعود أدراجى إلى القاهرة ! . ماذا يعنينى أنا من أمر تلك الحجرة المضاءة ؟ . وماذا يحدث لو تصدى لى بعض سكان المنزل ؟ . . ماذا أقول لهم ؟ وقلت لنفسى : « خيرٌ لك أن تعود إلى الاستراحة تلتمس الراحة والدفء ! وتسمع المذياع حتى تنام . . وأدرت ظهرى وأنا أستعد للعودة .

وفجأة انبعث صوت الموسيقى من جديد . . كان عزفاً على العود ، لكنه كان رائعاً خلاباً . فصممت على أن أعرف سر تلك الحجرة المضاءة مهما كلفنى الأمر ! .

ارتقيت فى بطء درجات السلم المتآكل . كنت أستعين من وقت لآخر بأعواد ثقاب أحتفظ بها معى ، وعندما وصلت إلى نهاية السلم تنهدت فى ارتياح . . لكن سرعان ما سألت نفسى : ماذا أقول للناس سكان هذه الشقة ؟ إنهم لا يعرفوننى . . وأنا لا أعرفهم ! هل أقول : إننى أريد أن أستمع إلى الموسيقى فى منتصف الليل ؟ .

وتصبب العرق على جبينى وشعرت بالخجل ! . ماذا يحدث لو خرج سكان المنزل جميعاً ووجدونى فى هذا الموقف ؟ سيكون أمراً بالغ الحرج ! .

وانبعث العزف من جديد ، فاستجمعت أطراف شجاعتى . . وطرقت الباب طرقاً خفيفاً . . وبعد قليل سمعت صوت مزلاج . . وإذا بالباب يفتح . . وظهر رأس امرأة متقدمة فى السن . . أخذت تتأملنى برهة قصيرة . . وأنا صامت . . ثم قلت : الموسيقى ! . نعم الموسيقى .

وفى هدوء فتحت الباب وقالت : لقد أتيت لزيارة كمال . . إنه هنا . . تفضل . حمداً لله لقد عرفت اسمه . إن اسمه كمال . ذلك سيزيل عنى نصف الحرج . سأقول له مساء الخير يا أستاذ كمال وأنا معجب بفنك . وقد جئت أزورك

ولابد أنني سأجد مدخلاً للحديث ، وشعرت ببعض الراحة والطمأنينة .

عندما دخلت الحجرة وجدته يحتضن العود ، ويجلس قريباً من النافذة يتأمل نجوم السماء ولما أحس بمقدمي وقف وسلم عليّ وقال تفضل .

وعاد إلى العزف مرة أخرى . . جلست بضع دقائق مبهور الأنفاس . . . كان اللحن بالغ الروعة . . . وما إن أقبلت السيدة العجوز وهى تحمل قدحين من الشاى حتى انتهزت الفرصة وتحدثت معه قليلاً . . عرفته بنفسى وسألته عن اسمه بالكامل . . .

وابتسم وقال : لقد سمعت اليوم فقط عن مقدمك إلى مدينتنا وأنا أعلم من الصحف أنك مهتم بالأدب والفن . . . شكراً لك على زيارتك . . أنا اسمى كمال حمدى . . .

وشعرت وكأن عبئاً ثقيلاً قد انزاح عن كاهلى ! . . لقد ذهب الحرج . . . وها نحن أولاء قد أصبحنا أصدقاء ! . . لن أغادر هذا المنزل حتى أعرف سر ذلك الفنان . . لماذا يعيش مغموراً هكذا لا يعرفه أحد . . وهو يتمتع بهذه الموهبة النادرة ؟ . . ولماذا يفتح النافذة . . . والجو شديد البرودة ؟ . . ولماذا يقيم فى تلك الحجرة على السطوح ؟ . .

وأخذت أجيل بصرى فى الحجرة . . فى ركن منها سرير حديدى صغير . . . وفى ركن آخر أريكة متواضعة وثلاثة كراسى . . . وبجواره جهاز تسجيل . . وبعض أشرطة التسجيل متناثرة على الأرض . . .

واقتربت من النافذة وقلت له : إن هواء الليل منعش حقًّا . . لكن ألا تحس بقشعريرة وأنت ترتدى هذه الملابس الخفيفة ؟ . . هل تأذن لى بإغلاق النافذة ؟ . .

واغتصب ابتسامة قبل أن يجيب . : كما تحب ! . . هذه النافذة المفتوحة . .

تؤذى صحتى ، لكنى أريد أن أستنشق أكبر كمية من الهواء النقى قبل الأصيل . . لقد ولدت هنا فى الفيوم ، هذه المدينة الجميلة وعدت إليها من ستين بعد طول اغتراب وغياب وعذاب ! . أليس من حقى أن أودعها ؟ .

وأخذ يتأمل الفضاء أمامه وقال : هذه النجوم ! . . ألا تراها جميلة ؟ . . إننى أريد أن أشبع عينى منها ! وشعرت ببعض الانقباض وأنا أستمع إلى حديثه عن الرحيل وعن النجوم . . .

آثرت أن أدير دفة الحديث إلى موضوع آخر . . . سألته عن تجاربه الفنية السابقة . . . وأشار فى هدوء إلى مجموعة أشرطة التسجيل الملقاة على الأرض . . وقال : تخير منها ماتشاء . . واستمع إليه الآن . .

وامتدت يدى إلى أقرب شريط ووضعته فى جهاز التسجيل وأدرته . . . وانبعث لحن جميل رائع . . ولكننى سرعان ما أوقفت الجهاز . . إن هذا اللحن معروف لى جيداً وقد استمعت إليه من قبل مرات ومرات ! . وأعرف صاحبه وهو موسيقار شهير . . يبدو أننى أخطأت فى اختيار الشريط . . وشاهد الفنان كمال حيرتى . . وقال : لاتعجب . . هذه كلها ألحانى . . وأنا أعرف أنك وغيرك استمعتم إليها على أنها ألحان شقيقى الموسيقار المشهور . . أليس كذلك ؟ .

فقلت لنفسى بصوت خافت : إذن فأنت شقيقه ! . .

ويبدو أنه سمعنى . . فرد : أنا شقيقه الأصغر . . لكنه سيكون أطول منى عمراً . . لماذا أجرى أنا وراء الشهرة والمال . . وأنا سحابة صيف فى هذه الحياة . . كل مايعنينى أننى أعبر عن مكنون نفسى بهذه الألحان . . هذا التعبير يعطينى السعادة الكاملة . . . وهذا يكفى ! . . .

وطالت جلستنا ، أخذنا نتحدث فى كل شىء . . فى الأدب . . فى الفن . . فى الحياة . . . كان ذا ثقافة غزيرة . . وموهبة فنية نادرة . . . طلبت منه أن أستمع

إلى بعض مؤلفاته الموسيقية . . . فلم يخيب ظني . . وظللنا طوال الليل نتجاذب أطراف الحديث تارة ونستمع إلى الموسيقى تارة أخرى . . حتى بدأت تباشير فجر اليوم الجديد . . . .

وقمت إلى النافذة وقلت له : لعله من الأوفق أن تغلق النافذة . . وتستريح قليلاً . . . إن النجوم بدأت تختفى من السماء . . ولم أنتظر رده فأغلقت النافذة وودعته وانصرفت . . .

وبعد ظهر اليوم التالى توجهت إلى القاهرة وقصدت على الفور صديقاً قديماً يعمل رئيساً لتحرير إحدى الصحف اليومية . . وما إن رآنى حتى ابتسم وقال : هذه خطوة عزيزة . . . لابد أن لديك أخباراً هامة . . وبعد أن تناولنا القهوة . . سألته هل سمع من قبل عن فنان اسمه كمال حمدى . . .

وأخذ صديقى يملأ غليونه بالتبغ وهو يقول : الآن عرفت سر زيارتك كنت أتوقع أنك ستلاقيه فى الفيوم يوماً ما ، لكن كيف عثرت عليه خلال هذه الفترة القصيرة ؟ .

وخجلت أن أروى قصة النافذة المضيئة فى ظلام الليل . . فلم أرد على سؤاله وإنما بادرته بقولى : . . ما دمت تعرف حقيقة أمره . . لماذا تتجاهله الصحافة هكذا . .

تنهد صديقى رئيس التحرير وهو يقول : هذه رغبته . . عبثاً حاولت إقناعه – مدير الإذاعة يعرف قصته بالكامل . .وقد تلاقيا هنا فى مكتبى . . وتحدثنا كثيراً لكن دون جدوى . . إنه يؤثر أن يكون كالشمعة التى تذوى وتحترق . وخاصة أنه يعتقد أن رحلته فى هذه الحياة لن تطول ! .

أنت أديب وتعرف أن للفنان عالمه الخاص . . كمال حمدى هذا عبقرية نادرة . . لقد استمع بعض الموسيقيين الأجانب إلى مؤلفاته الموسيقية . . وأبدوا

إعجابهم الشديد بها . . . وتمنوا أن يلتقوا ومؤلفها . . لكنه اعتذر فى أدب . . ولم أستطع أن أكتم فى صدرى هذا السؤال : ولماذا تغض الصحافة الطرف عن كل ذلك ؟ . . من حق الناس أن يعرفوا هذا الفنان . . .

وصمت صديق برهة قصيرة قبل أن يرد : معك حق . . . لكن الصحافة تعودت أن تحترم رغبات الفنانين وأسرارهم ! . . وقد حذفت مرة مقالاً لصحفى ناشئ هنا عندى فى الجريدة بعنوان : كمال حمدى . . الفنان المجهول . . . إن الحفاظ على أسرار الفنان أهم من أى سبق صحفى . .

وبعد ثلاثة أيام عدت إلى الفيوم وما إن تركت حقيبة ملابسى فى الاستراحة حتى غادرتها على الفور وتلمست طريق فى الدروب الضيقة حتى وصلت إلى المنزل الذى قابلت فيه (كمال حمدى) .

ارتقيت درجات السلم ، كان شعورى فى هذه المرة يختلف تماما وشعورى وأنا أرتقى تلك الدرجات أول مرة . . كنت سعيداً إننى لم أعد غريباً ، ولم أعد أبحث عن المجهول . . . لكن شعوراً بالضيق والانقباض انتابنى وأنا أطرق باب الشقة .

فتحت لى السيدة العجوز الباب فقلت لها فى هدوء . . : أظن الأستاذ كمال موجود . . فردت علىّ والدموع فى عينيها . . تعيش انت . . ومع ذلك دعنى أصارحك . . لقد أدخلت زيارتك عليه كثيراً من البهجة . . قبل رحيله بساعات . . .

وشعرت بدوار شديد وأنا أنزل فى بطء درجات السلم المتآكل . . . وقلت لنفسى : إنها سنة الحياة .

وبعد يومين كنت أستمع إلى المذياع ، وتناهى إلى سمعى لحن لم يكن غريباً علىّ . . . نعم إنه اللحن الذى كان يعزفه كمال عندما زرته فى تلك الليلة . . وسألت نفسى : ترى لمن سينسب هذا اللحن بعد رحيله ؟ وكانت المفاجأة . . قدمت

الإذاعة اسمه إلى المستمعين لأول مرة وآخر مرة . . .

وبرغم مضى سنوات على رحيل كمال حمدى مازلت حريصاً على أن أمر أمام المنزل الذى كان يقيم به فى الفيوم وأقف لحظات أمامه كلما دعتنى الظروف لزيارة تلك المدينة ! . .

حياة جديدة

كان اليوم يوم عطلة رسمية . . ازدانت الشوارع بالأعلام وأغلقت المصالح الحكومية أبوابها ، وامتلأت الميادين والحدائق العامة بأفواج من البشر يتحدثون ويضحكون ويلوحون بأعلام صغيرة فى أيديهم .

أطل حامد من نافذة منزله وأخذ يرقب الجموع الغادية الرائحة وهو يرتشف فى بطء قهوة الصباح ثم نظر إلى والدته وقال :

ما رأيك ؟ نأخذ السيارة ونجول فى أرجاء المدينة . . أو نقضى اليوم فى إحدى الضواحى ؛ إننى أشعر ببعض الملل والضيق . . هذه الحياة الرتيبة أصبحت لا أحس لها طعماً !

وأطرقت والدته برأسها إلى الأرض ، ثم رفعت رأسها وقالت :

معك حق . . لكنّ هناك أمراً أود أن أحدثك فيه من زمن وقد حدثتك فيه فعلا من سنوات ، أرجو أن تفسح لى صدرك هذه المرة . . أنا أمك . . وأنت أعز إنسان لدى فى هذه الحياة . . وأنا أحرص الناس على راحتك وسعادتك . . لقد

مضت الآن خمس سنوات على ذلك اليوم الحزين . . أنا أقدر وفاءك لزوجتك . . كانت أميمة إنسانة ممتازة . . أنا أعلم هذا وقد خبرتها عن قرب . . لكنني الآن أريد أن أطمئن عليك وأنا كما تعرف قد تقدمت بي السن . . وأخشى . .

واغرورقت عيناها بالدموع . . وتوقفت عن الكلام . .

ومسحت دموعها ثم استطردت قائلة :

وأنا أيضا تهفو نفسي لكي أرى لك ذرية في حياتي ! وخيم على الحجرة صمت لمدة دقائق ، ثم قطع حامد حبل الصمت بقوله :

أعدك أن أفكر في هذا الموضوع جديًّا . . لقد عاهدت نفسي يوم رحيلها ألا أتزوج بعدها أبداً ، لكنني من أجل خاطرك مستعد أن أبحث الموضوع من جديد . . لكن أي فتاة تقبل الآن أن تتزوج رجلا في الأربعين . . سبق له الزواج من قبل ؟ . . ومن الذي يضمن لي أنها ستحسن معاملتي ومعاملتك كما كانت تفعل أميمة ؟ . . . أليس من المحتمل أن تكون سبباً لشقائي وتعسي بدلا من سعادتي ؟ . . على أية حال دعيني أفكر في المبدأ . . أرجو إعطائي فرصة ولو يوماً واحداً للتفكير . . وانبعث صوت والدته خافتاً هادئاً :

كما تحب . . لكن ما دمت ستفكر في الموضوع – دعني أعرض عليك اقتراحاتي مرة واحدة . . أنت تعرف أن علية شقيقة زوجتك الراحلة أصبحت أرملة من شهور ، لقد استشهد زوجها ضابط (البوليس) وهو يؤدي واجبه . . إنها في الثلاثين من عمرها . . لم تنجب سوى طفل واحد وتتمتع بأخلاق أميمة نفسها . . هذه مجرد فكرة طرأت لي الآن . . . أرجو أن تبحثها وإذا راقت لك تستطيع أن تتحدث مع والدها الحاج سليم . . . أو أتحدث أنا مع والدتها . . إنهم أناس طيبون وقد سمعتهم أكثر من مرة يمتدحون خلقك ووفاءك لزوجتك . ، وأعتقد أنهم سيرحبون بك . .

قالت والدته هذا الكلام وغادرت الحجرة على الفور ؛ فقد كانت تعرف عن ابنها حامد أنه يحب حرية التفكير ووزن الأمور ، ولا يحب أن يتصرف تحت ضغط أو إلحاح ، واعتمد حامد رأسه بين يديه واستغرق فى تفكير عميق . . . وأخذ يقول لنفسه : يالسخرية الزمن ! . . من كان يتصور أنه سيأتى اليوم الذى أفكر فى علية من جديد ؟ . . نعم علية ! . .

وتلاحقت فى مخيلته صور من الماضى . . يوم توجه ليسأل عن حسابه فى (البنك) فشاهد موظفة حديثة التخرج رقيقة جذابة أنيقة فى ملبسها مهذبة فى حديثها ، فاستشعر أنه وجد فيها بغيته وتوجه إلى مدير (البنك) – وكان صديقا له – يسأله على استحياء عن اسم هذه الموظفة واسم والدها وعنوانه . . وأفصح له عن مشاعره وداعبه مدير (البنك) فى بادئ الأمر بقوله : هذه من أسرار المهنة . . أنت تعرف أن (البنوك) محرم عليها إفشاء أسرار العملاء فما بالك بأسرار موظفيها ؟ . . ثم أخرج ملفًّا من درج مكتبه . . أخذ يقلب صفحاته ثم أملاه اسمها بالكامل (علية سليم عبد العال) تسكن فى المنزل رقم ١٥٧ شارع الهدى بالدور الثالث الشقة التاسعة . .

ثم قال مازحاً . . ولكننى لن أغطيك رقم تليفون المنزل هذه المرة .

وتتابعت الذكريات . . والدته تتوجه إلى منزل علية . . وهناك تقابل بترحاب شديد . . ولكنهم يقولون لها : إن علية مخطوبة لابن خالتها ضابط (البوليس) وسيتم إعلان الخطبة بعد أيام وعرفت منهم أن لها شقيقة اسمها أميمة تشبهها تماماً . . وهى لم تخطب بعد . . وكان النصيب . .

وعندما نهض حامد ليرتدى ملابسه كانت تبدو على وجهه أمارات الحيرة الشديدة . . إنه يجتاز موقفاً حاسماً . . وعليه أن يتخذ قراراً صائباً لا يندم عليه بعد ذلك . . إنه يحس أن والدته قد قامت فى الأيام الأخيرة بعملية جس نبض . . وإلا

فما بدت واثقة من حديثها وإلا ما أقدمت على مفاتحته فى الموضوع على ذلك النحو . . من المحتمل أن تكون قد توجهت إلى منزل الحاج سليم مرة ومرات وناقشت معهم الفكرة . . بل ناقشت كل التفاصيل ! إنه يعلم أن والدته شديدة الذكاء . . وتحسن عرض مثل هذه الموضوعات . . وفى الوقت ذاته تجيد سياسة الكتمان . . منعاً لأى إحراج . .

لكن هذه كلها افتراضات ومن يدرى ربما كانت فكرة طرأت لها ذلك الصباح على حد قولها . . لقد سمع أن علية تود أن تكرس حياتها لتربية طفلها . . ماذا لو قالوا له : هذا الكلام ! . . الأفضل أن تسمع والدته بنفسها هذا الاعتذار دون أن يكون هو حاضراً .

يكفيه أنه سيخرج عن الخطة التى اختطها لنفسه فى العزوف عن الزواج احتراماً لذكرى العزيزة الراحلة . . وللعهد الذى قطعه على نفسه ، ولا داعى لأن يسمع بأذنيه اعتذاراً ولو مهذباً من أسرة علية . . إنه ليس فى حاجة إلى جراح جديدة . . يكفيه ما يحس به من كآبة .

وطافت بذهنه صورة علية عندما رآها للمرة الأولى فارتسمت على شفتيه ابتسامة . . ثم ما لبثت الابتسامة أن اختفت . . وقال لنفسه لقد تغير الزمن . . إنها الآن أم أولاد . .

استقل حامد سيارته ، وجلست والدته بجواره . .وأخذا يجوبان المدينة على غير هدى . . وبالقرب من إحدى الحدائق العامة أبصر صبيًّا صغيراً يجرى أمام السيارة فتوقف على الفور . . لكن يبدو أن شيئاً ما قد حدث ، لقد سقط الصبى على الأرض فى اللحظة التى توقفت فيها السيارة . . ونزل حامد من السيارة وبقيت بها والدته وقد بدت عليها آثار الانزعاج . .

وفى لحظات قليلة التف حول السيارة جمع غفير من الناس أقبلوا يتصايحون . .

وشقت الصفوف امرأة بدينة تتشح بملابس سوداء وهى تدق على صدرها وتصرخ : ابنى . . . ابنى ! حسام رد على . . هل أصابك مكروه . . . ؟

ونظرت إلى حامد وقالت : حرام عليك . . أليس عندك أولاد . . . ؟

ثم أقبل رجل فارع الطول يلبس جلباباً ويتكئ على عصاً وما إن اقترب من حامد حتى أمسك ذراعه بغلظة وهو يقول فى صوت مرتفع : إنك لن تفلت من يد الحكومة . . ستدخل السجن . . وإذا أفلت من الحكومة فلن تفلت من يدى . . أرواح الناس ليست لعبة . . !

حاول حامد أن يشرح أنه لم يخطئ فى شىء ؛ وأن الصبى هو الذى أخطأ بعبوره الطريق فى أثناء مروره ، ولكن صوته ضاع وسط صيحات الاستنكار والغضب العارمة .

أخرج من جيبه حافظة نقوده وقبل أن يخرج منها بعض الأوراق المالية . . أحس بقبضة الرجل صاحب العصا تشتد ثم يصرخ : ضع نقودك فى جيبك . . نحن لا نبيع أولادنا بالنقود . . . هل تقبل أن تبيع ابنك بالمال . . . يبدو أنه ليس لديك أولاد . . .

وتصبب العرق غزيراً على وجه حامد . . ولم يدر ماذا يفعل ؟ . . .وماذا يقول ؟ . . هل يعرض عليهم أن يأخذ الصبى معه إلى المستشفى ؟ . . يبدو أنه لا جدوى من التفاهم معهم . . وفى هذه اللحظة أقبل شرطى ينفخ فى صفارته ويشير إلى الجموع المحيطة بالسيارة أن تنصرف . . ثم رفع يده ولوح بها ، وبدت سيارة إسعاف تقترب بسرعة . .

أخرج الشرطى من جيبه دفتراً صغيراً وأخذ يسأل (حامد) عن اسمه وعنوانه ووظيفته ورخصة السيارة ، ثم نزل رجل إسعاف من السيارة وتبعه آخر واتجها نحو الصبى الملقى على الأرض . . وما إن اقتربا منه حتى انتصب واقفا وأخذ يتأمل

المحيطين به وهو كالمذهول . . وما إن شاهد سيارة الإسعاف والنقالة حتى انفلت من بين الجموع وأطلق ساقيه للريح ! أخذ الرجل صاحب العصا يدق الأرض بعصاه وهو يردد : هذه المرة فاتت على خير . . . لكن حاذر يا حضرة وأنت تقود سيارتك يا محترم ، أولاد الناس ليسوا لعبة . . فاهم . . . وعاد الرجل يشدد قبضته على ذراع حامد . . الذى أجاب فى هدوء :

فاهم . . أنا آسف . . . عن إذنكم . . .

ودلف حامد إلى سيارته وهو كالمذهول . . . وعندما جلس إلى عجلة القيادة كان العرق لا يزال يتصبب من جبينه . . كانت والدته صامتة . . لكنه قرأ فى عينيها لحظات الرعب والألم التى عاشتها وهى تشاهد الصبى الصغير ملقى على الأرض . . والرجل صاحب العصا يشدد قبضته على ذراعه . . ويهدد ويتوعد . .

وعندما كان حامد يتجه بالسيارة إلى كازينو صغير فى نهاية الشارع كانت ترن فى أذنه أصداء هذه الكلمات : حرام عليك أليس عندك أولاد . . . نحن لا نبيع أولادنا بالنقود ! . . وهل تقبل أن تبيع ابنك بالمال ؟ . . يبدو أنه ليس لديك أولاد ! . . أولاد الناس ليسوا لعبة . !

جلس حامد فى الكازينو مع والدته ما يقرب من ساعة تناولا فيها بعض أقداح القهوة وعصير الليمون وتنهد حامد وهو يقول : الحمد لله الموضوع انتهى على خير . . أنا لم أخطئ فى شىء . . والصبى لم يصبه مكروه . . إن السيارة لم تصدمه ولم تلمسه . . . لكن يبدو أنه أغمى عليه عندما وجد نفسه يجرى أمام السيارة وهى تسير مسرعة قبل أن يتوقف ، فسقط على الأرض . .

إنى ألتمس لأهله العذر . . حقيقة أن حياة الأبناء لا تقدر بثمن . . وابتسمت والدته وهى تقول : إلى أين ستتوجه الآن . . ثم صمتت قليلا . . وأردفت قائلة . . عندى فكرة . . الحاج سليم منزله قريب من هنا . . ما رأيك فى أن نتوجه

لزيارة أسرته ونقضى هناك بعض الوقت قبل أن نعود إلى المنزل . . إنها ستكون مفاجأة لطيفة لهم و . . .

وفى صوت خفيض قال حامد : كما تحبين . . هيا بنا . . .

وفى الطريق إلى منزل الحاج سليم كان حامد يختلس النظر إلى والدته من وقت لآخر . . ويراقب أسارير وجهها . . التى بدت وكأنها تطفح بالبشر برغم مفاجآت ذلك الصباح ومتاعبه . .

وأخذ يتمتم . . . من كان يصدق أننى بعد هذه السنوات الطوال . . أعود إليها من جديد . . لكن هذه هى إرادة الله ومشيئته ؟

وأمام منزل الحاج سليم أوقف سيارته . . . وغادرها هو ووالدته . . . ووقف برهة قصيرة أمام باب المنزل وهو يستعيد هذه العبارات : اسمها بالكامل علية سليم عبد العال تسكن فى المنزل رقم ١٥٧ شارع الهدى الدور الثالث الشقة التاسعة . . لكننى لن أعطيك رقم تليفون المنزل هذه المرة . ! . .

شروق

كان منظر الشروق رائعاً خلاباً . . . الشمس عند الأفق تتسلل أشعتها إلى السحب التى تبدو متناثرة أسفل الطائرة فتكتسى لوناً زاهياً جميلا . .

تأمل حمدى برهة قصيرة ، هذا المنظر ثم التفت إلى زوجته زينب التى كانت تجلس على المقعد المجاور له فى الطائرة . . كانت قد أخذتها سنة من النوم . . إنها مرهقة لاشك إنها لم يناما طوال الليل ، وحضرا إلى المطار قبل الفجر .

كانت تبدو أنيقة فى ثوبها الفضى الذى اشتراه لها من أيام ، والقرط الماسى يتدلى من أذنيها وسأل حمدى نفسه هل تعرف زوجته حقيقة مرضها ؟ . . وما إن وصل به التفكير إلى مرضها حتى ارتجف . . إنها لا تعرف طبعاً حقيقة هذا المرض . . كل ما تعرفه أنها ذاهبة إلى إجراء عملية جراحية بسيطة . . وذلك بمناسبة رحلتها إلى أوربا . .

إنه يعلم يقينا أن العملية خطيرة ، من المحتمل أن تنجح ويكتب لها الشفاء ، ومن المحتمل أيضاً . . . وهنا أغمض عينيه . . إنه لا يستطيع تصور أى احتمال

آخر . . . لأنه لا يستطيع تصور الحياة بدونها ! إنها الشمعة التى تضىء له حياته . . بدونها ستكون الحياة مظلمة باهتة . . لا معنى لها . . !

لقد قال له الأطباء إذا نجحت العملية فلن تنجب أطفالا أبد الدهر ! . . وتمتم حمدى وهو يخاطب نفسه . . ما قيمة الأطفال بجانب شفاء زينب ؟ حقيقة أن كل رجل فى الحياة يتمنى أن يكون له أطفال ، . . لكن وجود زينب بجانبه وهى تتمتع بالصحة والعافية يساوى كل أطفال الدنيا ! . . ويعطيه كل سعادة يتصورها إنسان على وجه الأرض . . !

لقد بدأت القصة منذ ثلاث سنوات عندما بدأ علاجها عند أحد مشاهير الأطباء كى تستطيع أن تنجب أولاداً . . . واستمر العلاج على وتيرة واحدة خلال هذه السنوات حتى كان الشهر الأخير عندما طلب الطبيب المعالج إجراء بعض التحاليل . . وكانت نتيجة التحاليل قاسية . . كانت صدمة له لم يتوقعها . . وعندما أخبره الطبيب المعالج أنه يفضل إجراء عملية جراحية فى وقت مبكر إنقاذاً لحياة زوجته لم يتردد فى الموافقة ، لكنه فضل إجراءها فى الخارج . . ترى هل أخطأ عندما أخفى حقيقة الأمر على زوجته ؟ إنه تعود فى حياته أن يصارحها بكل شىء . . . لكن هذه المرة . . لم يجد مبرراً للمصارحة . . إن الحياة تسير فى أعنفها ولا داعى لكى يضيف إليها آلاما جديدة بعد أن استيئست من إنجاب الأطفال !

وجاءت المضيفة تحمل أكواب الشاى . . . لم يشأ أن يزعج زوجته . . . تركها نائمة . . وأخذ كوبها ووضعه بجوار كوبه . . وسأل المضيفة كم بقى من الوقت على وصول الطائرة ، . . نظرت فى ساعتها وقالت ساعة . . وقام بتحريك عقارب ساعته وهو يتمتم : ساعة ! . .

ارتشف قليلا من الشاى وأخرج من جيبه التقارير الطبية . . وأخذ يعيد قراءتها للمرة المائة هل التقرير الأخير صحيح ؟ . . ليته لا يكون كذلك . . !

وفجأة اكتشف أنه يحدث نفسه بصوت خافت ، فوضع التقارير فى جيبه . وأسلم عينيه للنوم . . . وبعد ساعة أفاق على صوت يطلب من الركاب ربط الأحزمة والامتناع عن التدخين . . ونظر إلى يساره فوجد زوجته تجلس فى استرخاء على كرسيها وهى تقرأ إحدى الصحف الأجنبية ولم يجد أقداح الشاى . فعرف أنها تناولت قدحها . .

والتفتت إليه زوجته وهى تقول : الحمد لله على السلامة . . هأنذى أخذت برأيك . . وحضرت معك ، وسأقوم بإجراء العملية بناء على رغبتك . . أنا مؤمنة بالله . . . لكن إذا حدث شيء أرجو ألا تحزن . . !

ونظر إليها حمدى وهو يبتسم وقال فى صوت هامس حنون : سيحدث كل خير إن شاء الله . . أنت أعز إنسان لدى فى الوجود . . ومن أجل هذا حرصت على توفير كل وسائل العلاج لك . . . ونحن ذاهبان إلى أشهر طبيب فى العالم . . فلم الجزع ؟ . . دعينا نقضى الأيام الثلاثة التالية فى بهجة وسرور ، وبعد نجاح العملية بإذن الله سنجوب أوربا كلها . . . لن نترك عاصمة حتى نزورها !

فأطرقت زينب برأسها إلى الأرض وبدت شاحبة وهى تتمتم : إن شاء الله . . .

ومرت الأيام الثلاثة الأولى سريعة . . . كانا يقضيان الوقت فى الجولان وزيارة الحدائق والمتاحف وبعض محال بيع الملابس الشهيرة . . وبرغم أن زينب كانت تبدو فى أغلب الأوقات باسمة منشرحة . . . . فإن (حمدى) كان يشعر أن زوجته تطوى جوانحها على ألم عميق . . فكان يختلس إليها النظر من وقت لآخر فيجدها ساهمة تنظر إلى الأفق نظرات شاردة وكأنها تحاول أن تستشف الغيب أو تنفذ إلى المجهول !

وقبل الموعد المحدود لإجراء العملية بساعات ، وكانا يجلسان فى حجرتهما فى

الفندق ، فوجئ زوجها بها تخلع سوار يدها وقرطها وساعتها وخاتمها وتقول له : احتفظ بهذه الأشياء معك . . أخشى أن تفقد فى أثناء العملية . .

وقبل أن يرد عليها أخرجت من حقيبتها رزمة من الأوراق المالية وقالت : لقد أحضرت معى كل ما أملكه من أموال . . احتفظ بها معك . . وتصرف فيها كما تشاء . . . !

ووقف حمدى برهة قصيرة صامتا يغالب الرغبة فى البكاء وفى صوت متهدج قال لها : لا داعى لذلك كله ، احتفظى بهذه الأشياء فى حقيبة يدك . . لا تخافى السرقة . . .

وحاول أن يضع النقود والمجوهرات فى حقيبة يدها . . لكنها فتحت الحقيبة وأفرغت كل ما بها على المائدة قائلة : أنا أعرف كل شىء . . لقد كتمت عنى السر . . لكنى قد عرفته . . وأنا لو عشت . . فلن أنجب أطفالا . . هذه تضحية منك . . ما رأيك أن نعود إلى القاهرة لتتزوج أنت أخرى ؟ . . أنا يهمنى سعادتك . . اتصل بالمستشفى الآن وأخبرهم أننا عدلنا عن إجراء العملية . . ما رأيك فى هذه الفكرة ؟ . . لقد خطرت لى الآن . . .

وفى هذه اللحظة رن جرس التليفون فى الحجرة . . كانت المتحدثة سكرتيرة الطبيب الذى سيجرى العملية وسألت حمدى هل يمكنه الحضور مع زوجته على الفور ؟ . إن الطبيب يريد إجراء كشف شامل قبل موعد العملية بوقت كاف .

ودون تردد وجد حمدى نفسه يرد . . . نعم . . . نعم . . أخبرى الدكتور أننا قادمان على الفور . . نعم بسرعة . . شكرا . .

ووضع حمدى سماعة التليفون . . واعتمد رأسه بين يديه وأخذ يسأل نفسه . . ما الذى جعله يتعجل الرد هكذا . . ودار فى أعماقه صراع مرير . . إن زوجته لو عاشت دون إجراء العملية فإن حياتها ستكون قطعاً مهددة بالخطر . . ستعيش عاماً

أو عامين على الأكثر . . وينتهى كل شىء . . لكن ماذا إذا أجرت العملية على الفور ، إنها أيضاً مخاطرة . . قد تموت فى أثناء العملية ويفقدها الليلة . . وبعد ساعات وليس بعد سنة أو سنتين . . وقد وقد . . وقد تعيش وتتمتع بالحياة . . هذا أمل رائع . . ليته يتحقق . . إنه لن يفكر بعد ذلك فى إنجاب أطفال . . هى نصيبه فى هذه الدنيا . . يكفى أن تكون بجانبه لتملأ حياته بالبهجة . .

وفجأة رفع حمدى رأسه . . وقد اكتست تعبيرات وجهه عزماً وإصراراً وقال لزوجته : إن الطبيب ينتظرنا الآن . . إننى أشعر بتفاؤل شديد . . هيا بنا . .

وردت فى صوت خافت . . على خيرة الله .

وأقلّت الاثنين سيارة أجرة . . وبعد دقائق كانا يدلفان إلى المستشفى يتأبط كل منهما ذراع الآخر .

كان المستشفى أنيقاً نظيفاً . . . يغلب عليه اللون الأبيض . . الأرض ، الجدران ، الأبواب . . الأسقف .

استوقف (حمدى) إحدى الممرضات وسألها عن الطبيب المعالج . . ودون أن تنبس ببنت شفة أشارت فى أدب إلى إحدى الحجرات . .

كان السكون الذى يخيم على المستشفى يدعو إلى الانقباض والرهبة . . كان الطبيب فارع الطول أشيب الشعر يضع على عينيه نظارة ذهبية كان يبدو واثقاً من علمه وخبرته . . استقبلها بابتسامة عريضة . . وأخذ يطالع التقارير مرة ومرات وقال : لا . . . هذه التقارير متناقضة . . . لابد أن هناك خطأ ما . . وهذا أمر يحدث كثيرا . . لقد قررت إرجاء العملية إلى الغد . . ربما يتم عمل تحاليل جديدة . . وسأقوم الآن بتوقيع الكشف عليها .

وجلس حمدى فى الاستراحة ينتظر على أحر من الجمر خروج الطبيب ، كانت لحظات من القلق الرهيب . . لكنها أخيراً انقضت وخرج الطبيب من حجرة

الكشف كانت تبدو على وجهه أمارات الدهشة وهو يقول . . كيف أجرى عملية جراحية مثل هذه لسيدة حامل . . ؟

وصرخ حمدى . . حامل !

وردد الطبيب . . نعم ، وهذا يؤكد أن التقارير قد حدث فيها خطأ ما وخاصة التقرير الأخير ، لابد من إجراء تحليل جديد هنا فى المستشفى . . وإن كنت أعرف نتيجته مقدما . .

وقبل أن يفيق الزوجان من دهشتهما . . كان أحد العمال يلهث وهو يتجه نحو حجرة الطبيب ويستأذن فى الدخول عليه ليسلم له برقية وصلت للتو من القاهرة . . الطبيب المعالج يقول : إنه حدث خلط فى التقرير الأخير بين سيدتين اسم كل منهما زينب . . نتيجة التحليل سلبية . .

ولدهشة الطبيب الكبير وجد الزوجة تنفجر باكية . . وهى تسأل فى لهفة . . معنى هذا أننى لست مريضة بذلك المرض . . رباه هل هذه حقيقة ؟ . لا . . لكن لابد من التيقن . . أود إجراء تحليل جديد الآن .

وقال الطبيب : سيتم إجراء التحليل لك على الفور . . لكن العلم يؤكد هذه النتيجة . .

ووقف حمدى ميهور الأنفاس : معنى هـــذا أنها لن تجرى لها عملية وأنها . . ستنجب أطفالا . . . وأنها حامل . . أليس كذلك . . . ؟

وقبل أن يرد عليه الطبيب انفجر هو أيضاً باكياً . . !

ووقف الطبيب يتأمل هذا الموقف وهو يبتسم وإذا به يجد نفسه فى غمرة هذا الانفعال تغرورق عيناه بالدموع ! فأدار ظهره قليلا ثم عاد يقول لهما فى جد سأكون فى انتظاركما فى عيادتى الأسبوع القادم مثل اليوم الساعة السادسة مساء لأطمئن على الجنين .

وفى تلك اللحظة تذكر حمدى منظر الشروق الذى رآه فى الطائرة . . فأخذ يردد : الشروق ! نعم الشروق ! كنت واثقاً أن الحياة ستشرق يوماً ما . . بالأمل . . !

الأب الحائر

كان الحاج بدر رجلا قصير القامة أشيب الفودين لا يدل مظهره المتواضع على ثرائه العريض ، يمشى فى شوارع المدينة لا يكاد يلتفت إليه أحد ، لكن عندما يقبل على الحى الذى يقطنه فى طريق عودته إلى المنزل الساعة الثانية من بعد ظهر كل يوم يقف جميع من فى الشارع لتحيته : هذا يسأله عن صحته ويدعو له بطول العمر ، وذاك يدعوه لتناول فنجانة من القهوة أو زجاجة من (الكازوزة) ، وهكذا حتى يصل إلى المنزل وهو يرد التحية بإيماءة من رأسه وعبارات مقتضبة ويولى وجهه فى هدوء شطر منزله الذى فى نهاية الشارع . . وما إن يستقر فى منزله حتى يبدأ الهمس لحظات ثم يختفى وقد يتحول أحيانا إلى مداعبات ومناقشات صاخبة ، وكان أكثر سكان الشارع برماً بالحاج بدر وأشدهم جرأة فى التعبير عن رأيه المعلم صبحى السمكرى ، وقف منذ أيام فى منتصف الشارع بعد أن مر به الحاج بدر وقال فى صوت عال : إننى أريد أن أسمى هذا الشارع شارع النفاق !

أنت يا معلم رزق – وأشار إلى المعلم رزق البقال – ترحب وأنت تسلم على

الحاج بدر وتدعوه لتناول القهوة لأنك تريد شقة لابنك فى العمارة التى يبنيها الحاج فى أول الشارع . . تتصور أنه سيرحمك من خلو الرجل . . أؤكد لك أنه لن يرحمك ! . .

وأنت يا أسطى زكريا تتودد إليه لكى يلحق ابنك بالعمل عنده فى المصنع ! أوهام ! . . هل نسيت رأيك فيه يوم طلق زوجته الأخيرة دون ذنب جنته . . وقضيت الساعات الطوال تروى لنا تاريخ حياته ؟ وكيف أنه رجل لا قلب له يبدل الزوجات كما يبدل ملابسه وأنه مقتر ! . .

وضحك المعلم سرور الحلاق وهو يسمع هذا الكلام . وقال : طبعا وإلا اشترى لنفسه سيارة وهو يمتلك عشر عمارات ! إننى لم أره فى حياتى يركب سيارة أجرة . . لقد رأيته بعينى رأسى يركب (الأوتوبيس) فى الدرجة الثانية ويقف على قدميه وسط الزحام !

وتضيع الضحكات وسط ضجيج (الترام) وسيارات النقل وهى تعبر الشارع فى سرعة فائقة . .

وكان الحاج بدر يعيش فى منزله مع ابنته (الوحيدة) ليلى التى أنجبها من زوجته الأولى السورية الأصل . كانت ليلى هذه طالبة فى السنة النهائية بكلية التجارة ولم تكن تختلط بأحد من أهل الحى . . تعود من الكلية إلى المنزل ترعى شئونها وشئون والدها ، ثم تأخذ فى استذكار المحاضرات والمؤلفات العلمية والأدبية حتى تستغرق فى النوم ، ولا تغادر المنزل إلا فى صباح اليوم التالى . . وهكذا .

وذات مساء أقبل عليها والدها هاشًّا باشًّا وقال لها : أنت ترين يا ليلى أننى أعيش هكذا وحيداً . . نحن . . أنا وأنت فى حاجة إلى من يخدمنا ويرعانا . . وأنا لا أثق فى الخادمات . . كما تعلمين . .

وفهمت ليلى كل شىء وقاطعته : منذ أخذت فى طلاء الشقة بالزيت من

أسبوع وأنا فهمت أنك تستعد للزواج من جديد . . أنت حر فى حياتك الخاصة لكننى لا أستطيع الحياة تحت سقف واحد بعد ذلك مع زوجة أب ! لقد جربت مرات ومرات . . وكنت صغيرة ومغلوبة على أمرى . . أنا الآن مثقفة . . وأستطيع أن أعمل بعد الظهر حتى أتم دراستى الجامعية . ! .

وصمتت قليلا وأردفت : لقد أعددت للأمر عدته . . لقد قدمت طلباً لبيت الطالبات بالمدينة الجامعية . . وقُبل طلبى . . وأنا على استعداد للذهاب إلى بيت الطالبات فى أى وقت لأدعك تهنأ بزواجك الجديد !

وتنهد الحاج بدر . . ولم يرد على كلام ابنته بشىء . . واستغرق فى تفكير عميق . . ومر أسبوع بدا خلاله مهموماً مشغول البال . . لم تعرف الابتسامة طريقها إلى شفتيه !

وعندما أقبل المساء ظل ساهراً لم يغمض له جفن . . أخذ يستعرض حياته . . كفاحه فى سبيل الثروة . . زواجه الأول من والدة ليلى . . هذه (الإنسانة) الطيبة الجميلة التى ظلمها بالطلاق . . كما ظلم كل من جاءت بعدها . . كن جميعاً ينخدعن فى ثروته وكان هو يتصور أن كل زوجة منهن تريد أن ترثه . !

أخذ يقلب الأمر من جميع نواحيه . . إن ليلى (وحيدته) فى هذه الدنيا وهو يحبها أكثر من الحياة ذاتها فكيف يستطيع فراقها ؟ . . لقد أوقع نفسه فى ورطة . . ليلى لا تريد العيش مع الزوجة الجديدة وهو قدم شبكة وهدايا قيمتها خمسمائة جنيه وقد تحدد موعد عقد القران بعد أيام . !

وعاد يسأل نفسه : لم جلب لنفسه هذا العناء ؟ . ماذا عليه لو كان قد عاش مع والدة ليلى فى سعادة وهدوء ؟ . أى شيطان هذا الذى وسوس له ليطلقها . . إنها لو عاشت معه حتى الآن لكانت قد ملأت عليه البيت بهجة وأولاداً وما فكرت ليلى فى فراقه . . !

وومض فى ذهنه خاطر جعله يبتسم : هل من الممكن أن تعود المياه إلى مجاريها . . إن والدة ليلى تعيش مع شقيقها فى حلب . . إنه يستطيع أن يتخلص من الزيجة الجديدة . يعتذر لأهل العروس بأى سبب ويترك لهم الشبكة والهدايا ! .

سيكون ذلك هو الحل السعيد لا ريب . . سيطلب من ليلى فى الصباح الباكر أن تكتب خطاباً لوالدتها . . بل ترسل لها برقية تدعوها فيها للعودة على الفور . وبذلك تعود إليه زوجته الأولى الحلوة الرشيقة ويحتفظ بليلى أبد الدهر . .

وعندما أفاق الحاج بدر من نومه فى ذلك الصباح كان يبدو سعيدا مبتهجاً . . توجه إلى حجرة نوم ابنته وطرق الباب مرتين ، ولكنه لم يسمع ردًّا . . لعلها مازالت تغط فى نوم عميق واسترعى نظره ظرف ملقى على مائدة فى الصالة . . كان رسالة من ليلى :

«والدى العزيز : معذرة إذا غادرت المنزل فجأة هكذا دون استئذان . . لكننى بعد أن أمعنت فى النظر فى الموقف وجدت من الأفضل ألا أقف عقبة فى سبيل سعادتك . . من المحتمل ألا ترانى بعد اليوم . . لكن ثق أننى سأكون بين أيد أمينة . . فلا ترهق نفسك بالبحث عنى . . وتفرغ لحياتك الجديدة . . تحياتى وأطيب تمنياتى لك بالسعادة والهناء» .

ابنتك ليلى

وسقطت الرسالة من يد الحاج بدر ولم يدر ما يفعل ؟ . هل يبلغ (البوليس) ؟ . إنها ستكون فضيحة ! بنت الحاج بدر تهرب . . ثم إنها لم تهرب . . لقد أخبرته بصراحة أنها لن تستطيع العيش تحت سقف واحد مع زوجة

الأب . . وهو يثق فى خلقها وتدينها .

وتذكر شيئاً : لقد حصلت على موافقة من أيام على السفر للخارج فى رحلة مع الجامعة ، ثم عادت وأخبرته أن الرحلة قد ألغيت . . لعلها الآن ستسافر إلى . . نعم إلى والدتها واليوم هو موعد قيام الباخرة التى تغادر الإسكندرية إلى اللاذقية . . إذن فليحاول أن يلحق بها فى الميناء . . ويقنعها بالعودة ويشرح لها قراره الأخير .

وفى الميناء أخذ الحاج بدر يتفرس فى وجوه الغادين والرائحين : منهم من يودع ، ومنهم من يستقبل ، لكن أين ليلى . . وفجأة وقع بصره عليها . . لقد صح ما توقعه ، إنها ستسافر اليوم لاشك إلى سوريا لتلحق بوالدتها وأخذ يقترب منها وهو يناديها باسمها فالتفتت إليه قائلة فى لهجة مرحة أهلا يا والدى . .

ولفرط دهشته وجدها تقف مع سيدة طويلة القامة تلبس نظارة شمس . . وأخذ يتأمل السيدة . كانت والدة ليلى . . . ووجد نفسه مندفعاً إلى السلام عليها وتحيتها . . لقد واتته الفرصة ولن تفلت منه بعد ذلك أبداً . . ومدت يدها لتسلم عليه وفى هدوء . . نظرت إلى شخص يقف بجانبها . . وقالت :

أقدم لك الحاج (بدر) والد ليلى :

ونظرت إلى الحاج بدر وقالت . . أقدم لك زوجى الدكتور (سعيد) . . لقد حضرنا لتونا من رحلة فى أوربا ، لقد أخبرتك ليلى بالطبع شكراً على حضورك لاستقبالنا . . والآن أرجو أن تسمح لنا بالانصراف . .

وأصابت الحاج (بدر) قشعريرة وهو يتمتم . . تفضلوا . . تفضلوا . . !

المفاجأة

كان من عادة المعلم صبحى أن يفتح محله مبكراً كل صباح برغم أن العمل فى السنوات الأخيرة كان يقل بالتدريج نتيجة انتشار المكواة الكهربية وإقبال الناس على استعمالها فى منازلهم .

كان يعزى نفسه بأنه سيأتى يوم يقلع فيه الناس عن استعمال تلك المكواة ويبعثون إليه بملابسهم حيث يحسن كيها بتلك المكواة الضخمة التى يحركها بكلتا يديه ، فتخرج الملابس من تحتها ناعمة أنيقة . ذات بهاء وبريق . . !

وفى انتظار ذلك اليوم كان يفتح محله الثامنة صباحاً ، ويظل فيه حتى الثامنة مساء . . يعمل فى اليوم ساعة أو ساعتين ، ويجلس باقى الوقت على كرسى خارج المحل يتأمل المارة ويتجاذب أطراف الحديث والحاج جمعة بائع الحلوى ولبيب أفندى تاجر الخردوات .

أما ذلك اليوم فإن الساعة كانت قد تجاوزت العاشرة صباحاً والمعلم صبحى لم يحضر بعد إلى محله . . تبادل الحاج جمعة ولبيب أفندى النظرات . . وقال الحاج

جمعة : إذا لم يحضر حتى الظهر يجب أن نسأل عنه لعله مريض . . أو أصابه مكروه . .

وبعد لحظات حضر المعلم صبحى وفتح محله . . كان بادى الشحوب ألقى على صديقيه تحية الصباح بصوت خفيض وهو يتمتم : مسكينة : الأمر لله . . وربنا يرزق بثمن الدواء ولما استفسر منه الحاج جمعة عن سبب تأخره ذلك الصباح روى له كيف أن ابنته الصغرى مريضة وقد أحضر لها الطبيب فى المنزل وأن حالتها خطيرة وثمن الدواء وحده سبعة جنيهات !

جلس المعلم صبحى على كرسيه المعتاد وهو يفكر كيف يدبر ثمن الدواء ؟ . إنه لم يتعود أن يقترض من أحد مليماً واحداً . . لقد باع حصته التى ورثها عن والده فى منزل الأسرة القديم ليجهز ابنته الكبرى ليلى . . وهو الآن لا يمتلك إلا جنيهين اثنين . . !

وبينما هو مستغرق فى تفكيره . . أقبلت خادمة الدكتور على تحمل حلةً بُنّية وقميصين . . وضعتها أمامه وقالت : الدكتور يريد الحلة بعد ساعة ؛ لأنه سيتوجه إلى اجتماع . .

هم أن يسألها أين الدكتور على فى تلك اللحظة ؟ هل هو فى المستشفى أو العيادة أو المنزل ؟ إنه رجل طيب . . وقد يعاونه فى محنته ، ولكنها سرعان ما أدارت ظهرها وانصرفت . .

تناول الحلة البنية وبحكم العادة امتدت يده إلى جيوبها يبحث عن شىء نسيه صاحبها وفجأة لمست يده ورقة ! . إنها فيما يبدو تذكرة طبية نسيها الدكتور . . وأخرج الورقة لم تكن تذكرة طبية . وإنما لفرط دهشته كانت ورقة مالية من فئة عشرة الجنيهات !

ووضع الورقة المالية بجوار الحلة . . ووقف يتأملها . .

إنها عشرة جنيهات كاملة . إنها ليست ملكا له . . لكنها على أية حال تكفى شراء الدواء . . أو بالأحرى إنقاذ حياة ابنته . . لكن كيف يتصرف ؟ . . هل يذهب إلى الدكتور على ويقول له إنه وجد هذه الورقة المالية ، وإنه فى حاجة إليها لكى يشترى الدواء لابنته ؟ إنه موقف مؤلم . . كما أن البحث عن الدكتور على يستغرق وقتاً . . وقد تزداد حالة ابنته سوءاً إذا لم يسرع إليها بالعلاج ومن يدريه لعل الدكتور على يأخذ منه الورقة المالية ولا يأبه لطلبه ! . .

وشعر المعلم صبحى بدوار شديد . . كان المارة فى الشارع يبدون أمامه كأنهم أشباح متراقصة ، كانت الدموع فى عينيه وهو يقول لنفسه : هل يتحول المعلم صبحى بعد هذا العمر الطويل إلى لص يسرق أموال الناس ؟ . ثم ما لبث هاتفاً : وابنته (الطفلة) المسكينة . . ما ذنبها أن تموت . . إنها ستتألم لا ريب كثيرا قبل أن تموت !

ويخفى هذا الهاتف ليسمع هاتفا آخر : حذار من أموال الناس ! . ماذا تقول للدكتور على عندما يسأل عن النقود ؟ . هل ستقول له إنك اقترضتها . . أو تقول : إنك لم تجد شيئاً فى البذلة ؟ . وهل تجرؤ على مواجهته بمثل هذا الكلام . !

أخرج التذكرة الطبية من جيبه وأخذ يراجع ثمن الدواء . . نعم سبعة جنيهات وثلاثة قروش ، وأخذ ينقل بصره بين التذكرة الطبية والورقة المالية . .

وفجأة وجد نفسه يغلق محله ويتجه إلى الصيدلية . . بإحدى يديه تذكرة الدواء وبالأخرى الورقة المالية وأخذ يتمتم : المهم الآن إنقاذ حياة هذه (الطفلة) البائسة . . وليكن بعد ذلك ما يكون ! سأضحى بسمعتى . . بكرامتى . . قد أدخل السجن . . لكن لابد من إنقاذ حياة هذه الطفلة .

وعندما مد يده إلى الصيدلى بالتذكرة كانت قدماه ترتعشان . . والعرق يتصبب غزيراً من وجهه ، وفى لمح البصر أخرج الصيدلى ثلاث علب من الدواء . . وقال

للمعلم صبحى : بعد خمس دقائق فقط سيكون باقى الدواء موجوداً لقد أرسلت فى طلبه منذ نصف ساعة من المخزن .

وجلس المعلم صبحى فى الصيدلية . . يتفرس فى وجوه الزبائن . . هؤلاء كلهم حضروا لشراء دواء هذا يشترى دواء . لنفسه ، وهذا لأمه المريضة بالروماتزم . وهذا لوالده المصاب بقرحة فى المعدة . . . كل الناس يشترون الدواء ، لكنه هو أحوجهم جميعاً . . إن حالة ابنته خطيرة وهو لا يملك ثمن الدواء !

واسترعى انتباهه أن الدكتور مدحت صاحب الصيدلية يناقش زبائنه فى هدوء . . ويعاملهم برقة فائقة . . إنه شخص طيب . . وكان والده صديقاً له . . هل يطلب منه أن يبيع له الدواء بالتقسيط . . أغلب الظن أنه لن يرفض . . لكن بماذا يبرر طلبه وهو لا ريب رآه يحمل الورقة المالية فى يده . . هل يصدقه إذا قال له إنها ليست له ؟ . هل يصارحه بأنه سرقها من حلة أحد الزبائن . . إنه لن يصدقه ، ثم لماذا يفضح نفسه بنفسه هكذا على مسمع ومرأى من سكان الحى ؟

فى هذه اللحظة اندفعت داخل الصيدلية امرأة بدينة قصيرة القامة وهى تولول وتصرخ لقد مات الولد ! مات ابنى الوحيد ! لقد اشتريت منك دواء بعشرين جنيها . . أحضرت له أكبر الأطباء . . الولد مات ، واشتد صراخ المرأة وانهمرت الدموع من عينيها . .

تصرف الدكتور مدحت بلباقة . . أخذ يواسى السيدة الحزينة . . ويتلطف معها فى الحديث حتى انصرفت فى هدوء وأخذ المعلم صبحى يتأمل هذا المنظر ويمعن فى الفكر وهو يسأل نفسه : إذا كان دواء ثمنه عشرون جنيها لم يفلح فى شفاء ابنها . . فمن يضمن لى أن هذا الدواء سيجلب الشفاء لابنتى . . أليس من الجائز أن تموت بعد أن تتعاطاه . ؟

وانتصب المعلم صبحى واقفا فجأة وقال للصيدلى : عن إذنك . . آسف

لا أريد الدواء الآن . . وقبل أن يفيق الدكتور مدحت من دهشته كان المعلم صبحى قد غادر الصيدلية مسرعاً فى طريق عودته إلى محله ، فتح المحل وأخرج الكرسى الصغير ووضعه بجوار الحائط ، وجلس عليه وقد أطرق برأسه إلى الأرض . . وأغفى إغفاءة قصيرة . . رأى فيها يرى النائم ابنته تصرخ وتتألم . . وعندما يقترب منها ليناولها الدواء تضرب زجاجة الدواء بيدها فتقع على الأرض وتنكسر ! ثم رأى ورقة مالية من فئة عشرة الجنيهات تطير فى الهواء . . وعندما جرى وراءها ليمسك بها إذا بها تشتعل فيها النار ويتطاير منها الشرر !

وأخذ يفرك عينيه وهو يقول : أعوذ بالله هذه أضغاث أحلام . !

وكان لا يزال مطرقا برأسه فى الأرض عندما شعر بيد تربت على كتفه . . فرفع بصره ليجد الدكتور على يقف بجانبه وقد أوقف سيارته على مقربة من المحل .

– صباح الخير يا معلم صبحى . . يبدو أنك لم تنم أمس بما فيه الكفاية . .

– أهلا دكتور على . . تفضل . . أنا آسف . . الحلة سأكويها الآن . . لكن الجنيهات العشرة نعم الجنيهات العشرة . . تحت أمرك ! .

– عشرة جنيهات ؟ ماذا تعنى ! أنا لا أفهم شيئاً .

– لقد وجدت فى الحلة البنية ورقة مالية من فئة عشرة الجنيهات يبدو أنك نسيتها فيها وابتسم الدكتور على وهو يقول : أنا لا أذكر شيئا من ذلك .

وأخذ المعلم صبحى يفتش فى جيوبه عن الورقة المالية ، لكنه لم يجدها ، لقد كانت فى يده عندما توجه إلى الصيدلية ووضع يده على جبهته كمن يتذكر شيئاً قال : نعم إنها فى الصيدلية مع تذكرة الدواء . . عن إذنك دقيقة واحدة لأحضر لك النقود . .

أنا آسف لقد نسيتها فى صيدلية الدكتور مدحت .

وما إن هم بمغادرة المحل حتى استوقفه الدكتور على بحركة من يده . .

وصرخ المعلم صبحى : لا ، لابد أن أذهب لأحضر لك النقود الآن ، عشرة الجنيهات لقد وجدتها بنفسى فى حلتك هذه . . إذا كنت أنت لا تذكر فأنا أذكر ذلك جيدا . . لقد وجدتها هذا الصباح ومنذ نصف ساعة فقط .

واحتقن وجه المعلم صبحى ، وتطاير الزبد من شفتيه . . وهم للمرة الثانية بمغادرة المحل . . ولكن الدكتور على استوقفه من جديد وقال له وهو يشير إلى لفافة صغيرة فى يده .

لقد أحضرت لك الدواء الذى قرره شقيق الدكتور لطفى لابنتك . . والآن تعال معى فى السيارة لكى يصل الدواء إلى ابنتك بسرعة .

وقبل أن يفيق المعلم صبحى من دهشته استطرد الدكتور على : لا تتوجه إلى الصيدلية اليوم . . إذا لزمك شىء فاتصل بى تليفونيًا فى هذا الرقم . . احتفظ باللفافة مغلقة حتى تصل إلى المنزل . . وعندما تصل إلى المنزل ستجد مفاجأة أخرى فى انتظارك ، أنت رجل طيب . . وقد داعبتك اليوم بما فيه الكفاية .

وأمام منزل المعلم صبحى توقفت السيارة ونزل منها المعلم وأخذ يشكر الدكتور على بعبارات متقطعة ثم ماتت الكلمات على شفتيه . . ولم يدعه الدكتور على يتم كلامه وانصرف بسيارته مسرعاً .

كان المعلم صبحى يستعرض أحداث ذلك الصباح وهو كالمذهول . . عندما كان يصعد درجات سلم المنزل . .وعلى باب الشقة وجد زوجته واقفة تنتظره . . وعندما شاهدت اللفافة فى يده صرخت :

الحمد لله – لقد أحضرت الدواء .

ودلف المعلم صبحى إلى شقته فى هدوء ، وأمام سرير الطفلة فتح لها اللفافة التى فى يده فوجد فيها الدواء كاملا لكن يا للعجب ، وجد أيضا ورقة مالية من فئة الجنيهات العشرة والتذكرة الطبية إنها الورقة التى كانت معه فى الصباح ذاتها !

هم بأن يعود أدراجه يبحث عن الدكتور على ليعيد إليه الورقة المالية . . لكنه تذكر كلمات الدكتور عندما تصل إلى المترل ستجد مفاجأة أخرى فى انتظارك . . أنت رجل طيب . . وقد داعبتك اليوم بما فيه الكفاية .

وأخذ يتفرس فى وجه ابنته فإذا بها تبتسم وكأنها تقول له : نعم إنها المفاجأة . . !

الرسالة الأخيرة

كانت أعز أمنية للحاجة زكية وهى فى خريف العمر أن تزوج ابنها الأصغر (حمدى) وتشهد حفل زفافه قبل أن تؤذن شمس حياتها بالمغيب .

وانتهزت فرصة حصوله على بكالوريوس الطب وإلحاقه بأحد المستشفيات وصارحته بما يجيش بصدرها ويجول بخاطرها ، ولم يرفض حمدى بحث الموضوع ، ولكنه طلب من والدته أن تمهله قليلا ليتدبر الأمر ويمعن فى النظر .

وفى كل مناسبة كانت والدته لا تفتأ توحى إليه بأسلوب تعوزه الصراحة أحيانا وتغلب عليه روح المكاشفة أحيانا أخرى : توحى إليه بأن آمال بنت جارهم سعيد أمين هى خير من تصلح زوجة له ، ولم تكن آمال غريبة على حمدى . . لقد كانت زميلته فى الكلية وأتمت دراستها معه فى يوم واحد .

وبرغم أن آمال كانت ذات جمال ملحوظ وأخلاق عالية ونفس إنسانية نبيلة . وبرغم أنهما يستطيعان بالزواج أن يتعاونا فى المهنة فإنه كان يشعر أن مستقبله ومستقبل أولاده يجب ألا يرتبط بفتاة لا يملك والدها من حطام الدنيا سوى مرتبه !

ولم يشأ حمدى أن يفاجئ والدته برأيه هذا صراحة رفقاً بشيخوختها وإشفاقا على صحتها ، ولكنه لجأ إلى طريق آخر . أخذ يحدثها عن سعاد كريمة الحاج بركة تاجر الفاكهة الكبير الذى يمتلك ثلاث عمارات شامخة حديثة البناء بالإضافة إلى المزارع المترامية الأطراف !

. . . حقيقة لم تكن سعاد ذات جمال باهر ، كما كانت متكبرة بعض الشىء ! لكن متى كان الجمال كل شىء فى الحياة ؟

أما كبرياؤها فهذه مسألة تعالج مع الزمن . .

ونظرت الحاجة زكية إلى هذا الموضوع نظرة قاتمة ، وبعد أن كانت تلح على ابنها فى الزواج وتترقب قبوله بفروغ الصبر أصبحت تود أن يطوى القدر صفحة حياتها قبل أن تشهد زواج ابنها من سعاد .

كانت تعلم يقينا أن سعاد هذه « دلوعة » لا تصلح « ست بيت » ولن تستطيع أن توفر لابنها الهناء الأسرى الذى تنشده له والذى وفرته هى لزوجها المرحوم أكثر من نصف قرن من الزمان !

أصبحت تتفادى من كل حديث معه عن الزواج ! لكنه أخذ الأمر مأخذ الجد . . وفى لحظة من لحظات التسرع توجه بنفسه إلى الحاج بركة دون وسيط . . وعرض عليه الموضوع . . ولم يبد الحاج ترحيباً ظاهراً وقال لحمدى يا ابنى كل شىء قسمة ونصيب ! لقد كنت أود أن أزوجها ابن أحد تجار الفاكهة أصدقائى ، لكن على كل سأفكر فى الموضوع ، وعد إلى بعد أسبوع » .

وبعد أسبوع عاد حمدى إلى الحاج بركة يحدوه الأمل ، وقابله الحاج مقابلة فاترة ، وأخبره بأنه لا مانع لديه من تزويجه ابنته ولكن على شروط :

وكان أول هذه الشروط أن يبتعد عن والدته بمعنى أن يسكن بعيدا عنها ، وألا يسمح لها بزيارته فى منزل الزوجية ، وفى سبيل ذلك أبدى له استعداده لأن

يخصص له شقة بدون مقابل فى إحدى عماراته الفخمة !

وأما الشرط الثانى فكان أن يسمح لسعاد بأن تخرج وقتما تشاء ، وتعود عندما تريد دون إزعاجها بأسئلة وأجوبة .

وأما ثالثة الأثافى فكان ألا تشغل سعاد نفسها بشىء من شئون البيت إطلاقا . . لتكرس وقتها للاستمتاع بمباهج الدنيا !

وأذعن حمدى لهذه الشروط وهو لا يدرى : كيف أذعن ؟ ولكن والدته لم تذعن . . لقد كانت الصدمة أكثر مما تحتمل . . فصعدت روحها إلى بارئها ، وبذلك حقق القدر أمنيتها فى ألا تكتحل عيناها برؤية حمدى يتزوج سعاد !

وأصر الحاج بركة على عقد القران قبل حلول « الأربعين » وسايره حمدى فى ذلك ودفع ثمن ذلك نقداً مرًّا سمعه من الأقارب والأصدقاء ! ولكنه كان يعزى نفسه بأن رضاء الحاج بركة أمر جليل يهون فى سبيله كل شىء .

وعقد القران . . وتم الزفاف ، وكان حمدى يشعر وهو يخطو إلى منزل الزوجية بشعور غريب لم يدر كنهه ولا مصدره . . لكنه على أى حال . . كان شعوراً بالانقباض والقلق !

وكان حمدى يؤمل أن تتغير طباع زوجته بعد الزفاف ، ولكنه صدم عندما وجدها لم تتبدل . . ظلت تتعالى عليه ، وتنظر إليه نظرة فيها كثير من الازدراء والاستخفاف !

وذات يوم تناهى إلى سمعه صوت زوجته وهى تحدث بعض الضيوف فى حجرة الصالون عن حظها العاثر الذى أوقعها فى هذا الطبيب الناشئ الذى لم يرث عن والده درهماً ولا ديناراً !

وعندما أقبل المساء فاتحها حمدى فى الموضوع فى رفق وحذر ، وأخذ يعاتبها عتاباً رقيقاً ، لكنها نظرت إليه فى شراسة وقالت :

(ما هذا ! ألا يكفيك أن والدى دفع تكاليف عقد القران والزفاف ؟ . . ألا يكفيك أن والدى تعطف عليك بشقة طويلة عريضة دون أن تدفع مليماً من إيجارها ؟ . . ألا يكفيك أن يرسل لنا كُلَّ يوم مئونتنا من الفاكهة دون أن يتقاضى ثمناً لها ؟ ماذا تريد بعد ذلك ؟ . هل تريد أن تستعبدنى ، هل تريد أن أسجد لك وأسبح بحمدك ؟)

وشعر حمدى بأنه قد طعن فى كرامته فى الصميم ، لكن ما الحل ؟ إنه لا يستطيع أن يطلب منها مغادرة المنزل ؛ فالمنزل ملك لوالدها . . والأثاث ملك لها وليس له فى المنزل إلا ملابسه .

وطوى جوانحه على الألم وفى هدوء جمع ملابسه ووضعها فى حقيبة وانسل خارج المنزل ، ولم تحاول سعاد استبقاءه ولم تودعه حتى بكلمة !

وقضى ليلته عند شقيقه الأكبر محمود وهو تاجر ميسور الحال ، وظل الاثنان طوال الليل يقلبان الأمر على وجوهه ، وما إن انبلج الصباح حتى كانا قد انتهيا إلى رأى عقدا العزم على تنفيذه .

توجه محمود إلى الحاج بركة وقبل أن يدعه يتحدث فى الموضوع أخبره بأنه قرر أن يدفع نيابة عن أخيه حمدى إيجار الشقة سكنه اعتباراً من ذلك اليوم وأن كل ما يرجوه هو أن تحسن سعاد معاملتها لزوجها !

وبعد جهد جهيد ومحاولات عدة كللت مساعى الصلح بالنجاح .

وكان حمدى لا يعدم من أصدقائه فئة تغريه بشق عصا الطاعة على الحاج بركة وابنته . .

كانوا يدعونه إلى الامتناع عن دفع الأجرة قائلين له : إنه إذا ما أراد الحاج بركة أن يحجز فليحجز على منقولات ابنته ! . ومن الأصدقاء من كان يزين لحمدى فكرة استئجار شقة فى حى متواضع بإيجار مناسب ويطلب زوجته للطاعة فى تلك

الشقة إمعاناً فى إذلالها وتحطيم كبريائها !

ولكنه كان يشفق على نفسه من عناد هذه المشاكل . . وهو مازال فى فجر حياته الزوجية . . وكان يمنى النفس بأن يد الزمن كفيلة بأن تضمد جراحه وتهيئ له السعادة المنشودة .

وذات يوم عاد حمدى إلى المنزل منشرح النفس متهلل الوجه وأخبر زوجته بأنه تقرر إيفاده فى رحلة لزيارة بعض المستشفيات فى فرنسا وإنجلترا وسويسرا وإعداد تقرير عن زيارته وأن الرحلة ستستغرق عاماً وبعض العام . . وستكون مناسبة رائعة يستمتعان فيها برؤية العالم . . وانتظر حمدى من زوجته أن تطرب لسماع هذا النبأ . ولكنها أجابته فى فتور : بأنها لا تستطيع أن تذهب بعيداً عن والدتها الحبيبة . وأنه إذا شاء السفر فله أن يسافر بمفرده . . ويتركها وهى على أى حال ليست فى حاجة إلى رعايته !

ونزل هذا الكلام على حمدى نزول الصاعقة وهز كيانه هزًّا عنيفاً . . ولكنه لم ينبس ببنت شفة ولم يعاود الحديث فى ذلك الموضوع بعد ذلك .

وذات صباح وبعد شهر تقريباً أخبرها بأن موعد سفره قد حان . . فاكتفت بأن قالت له « مع السلامة » ولم تكلف نفسها عناء توديعه فى الميناء .

وكان كلما وصل حمدى إلى بلدة واستقر بها بعض الوقت أرسل لزوجته خطاباً مستفيضاً يبثها فيه عواطف الشوق والحنين . . وقد يرفق به صورة لأحد المناظر الطبيعية الخلابة للبلدة التى يقيم فيها .

وكان لا ينسى أن يضمن خطابه العنوان الذى تستطيع سعاد أن ترسل له الردود عليه ، وعندما كان حمدى فى فرنسا لم يصله من زوجته إلا ردٌّ واحد على خطاباته الكثيرة طلبت فيه بعض العطور من باريس . وعندما كان فى إنجلترا لم يصله منها أيضاً إلا خطاب واحد ضمنته رغبتها فى شراء بعض قطع القراء الثمينة من لندن .

واستمر حمدى يواليها بعد ذلك بخطاباته ، ولكنها لم تأبه بالرد عليها ، وأخذت خطابات حمدى بدورها تقل بالتدريج حتى انقطعت نهائياً بعد وصوله لسويسرا بقليل .

وبدأت سعاد تقلق . . صحيح أنها كانت تجد متعة فى إهمال الرد على زوجها ، لكنها كانت تجد متعة أيضاً فى تسلم خطاباته ، ثم ما باله يهملها هذا الإهمال ؟ أليست زوجته وشريكة حياته ؟

وظلت سعاد أياماً عدة تنتظر كل صباح على أحر من الجمر مرور ساعى البريد لتسأله فى لهفة : هل يحمل خطابات لها ؟ وغالباً ما كان رده بالنفى ، وفى المرات القليلة التى كان يسلم لها فيها خطابا أو خطابين كانت هذه الخطابات لا تعدو أن تكون إخطارات من شركة المياه أو النور أو نشرات من شركات الأدوية .

كان يجول بخاطرها أحياناً أن تكتب هى إلى زوجها لكن سرعان ما كانت تغالب هذه الرغبة وتبعدها عن ذهنها لأن تعليمات والدتها – التى لا تزال ترن فى أذنها – كانت تقضى بتصنع « التقل » وإظهار عدم الاكتراث ، لأن هذا النوع من الرجال – على حد تعبير والدتها – لا يجدى معه الذوق ولا المعروف !

ومرت شهور . . لا تذكر سعاد عددها بالضبط . . وكل الذى تذكره أنها بعد هذه الشهور تلقت خطاباً يحمل طابع البريد السويسرى ، وعرفت من الظرف أن الخطاب مرسل من حمدى فأيقنت أنه تاب وأناب وأنه يكتب إليها مستعطفاً مسترضياً . . وفضت سعاد الخطاب فى لهفة وبدأت تقرأ :

« حضرة السيدة المحترمة سعاد هانم » . .

وهنا توقفت سعاد لتتساءل . لماذا يلقبها زوجها هكذا . . حضرة . . محترمة . . هانم ؟ لماذا يخاطبها بهذه الألفاظ وقد كان عهدها به أن يخاطبها بزوجتى العزيزة . . زوجتى الحبيبة وسائر العبارات الخلابة التى تسيل عذوبة ورقة وطلاوة ؟

واستمرت سعاد فى مطالعة الخطاب :

« بعد التحية – أرجو أن تكونى وأسرتك بخير . .

هناك أمر أردت أن أصارحك به فى هذه الرسالة الأخيرة وأنا أستعد للعودة إلى أرض الوطن . . وأعتقد أنه لن يزعجك كثيراً .

لقد تزوجت . . نعم تزوجت هنا فى الخارج (آمال) زميلة الدراسة وجدتها تقدم بعض الأبحاث فى المستشفى الذى كنت أزوره وهى تعلم ظروفى تماماً .

لقد قبلت آمال عن طيب خاطر أن تكون الزوجة (الثانية) وستظلين أنت إذا شئت الزوجة الأولى .

تحياتى وإلى اللقاء ، ، ،

زوجك حمدى

عند الخريف

انصرف الحاج متولى وهو يتمتم «أنا أترك الموضوع أمانة بين يديك يابنى .. إنه يتعلق بشرف الأسرة وسمعتها أبد الدهر» !

وبدا فكرى مغموماً وهو يودع والده حتى الباب الخارجى ويقول له فى صوت خفيض حاول أن يبدو طبيعيًّا : اطمئن ياوالدى ، سأبذل كل ما أستطيع وأكثر مما أستطيع ! لقد حاولت التوفيق بينكما فى الماضى .. وفشلت .. لكن هذه المرة سيكون التوفيق حليفى .. ستعود المياه إلى مجاريها ، وثق أن كل ماسمعته لايعدو أن يكون إشاعة ! »

وجلس فكرى فى الحديقة على كرسى صغير واعتمد رأسه بين يديه ، وقد اكتست الدنيا فى عينيه غلالة سوداء ! إنه يعلم صلابة رأى والدته وهو يشعر فى أعماقه أن الإشاعة لا تعدو أن تكون حقيقة .. المهم الآن كيف يثنى والدته عن عزمها وماذا يفعل إذا رفضت ؟ هل يهددها وهى أعز إنسان لديه فى هذا العالم ؟ .. وكيف يهددها ؟ وبماذا يهددها وقد عاشت طوال حياتها مظلومة مع والده ؟ .. وقام

متثاقلا إلى حجرة نومه ، فارتدى ملابسه واستعد للخروج ، وفى الطريق إلى منزل والدته طاف بذهنه شريط الذكريات . ذكريات طفولته وصباه .. ورجولته . والبعثة التى قضاها فى الخارج .. فى كل مرحلة من هذه المراحل كانت والدته تحدب عليه ، وكان والده يعامله بقسوة حيناً وبرفق حيناً آخر ، لكن لم يشعره قط بعطف الأبوة . وكان يلحظ باستمرار أن والده يقسو على والدته وكثيراً ما كانا يتشاجران دون مبرر وقد صفعها على وجهها أكثر من مرة ، ولم ترد عليه ، كانت تغلق عليها حجرتها وتبكى ويجلس هو - أى فكرى - خارج الحجرة ويبكى لبكائها . وفى كل مرة كانت تطلب فيها الطلاق كان يتوسط أهلها لإتمام الصلح بعد أن يعلن والده فى حزم أنه لا يمكن أن يطلقها أبد الدهر .. لأن ذلك يعارض تقاليد الأسرة !

حتى كان العام الماضى وحدثت مشاجرة بين الاثنين .. وطلبت والدته الطلاق .. ولفرط دهشته أحضر والده المأذون على الفور وطلقها ! ومنذ ذلك اليوم وهى تعيش فى فيلا خاله الدكتور أحمد الذى أفرد لها طابقا بأكمله فى الفيلا .

لكن ماسمعه اليوم من والده يدعو إلى الدهشة والعجب .. إن والدته ستتزوج نعم ستتزوج الشيخ (زغلول) عمدة البلدة المجاورة لبلدتهم ! هل من المعقول أن تتزوج سيدة فى سن الستين وزوجها الأول على قيد الحياة .. ولها ولدان يشغلان مناصب هامة فى الدولة ؟ .. إنه أمر كما قال والده يتعلق بشرف الأسرة وسمعتها أبد الدهر .. إن الشيخ (زغلول) يمتلك أرضاً زراعية ملاصقة لأرض والده تماماً .. وقد كان لايخفى عداءه للأسرة . كيف يكون مثل هذا الرجل زوجاً لأمه ؟ لا إن ذلك لن يحدث أبداً .. إنه يحب والدته .. ويعلم أنها مظلومة .. لكن لا يمكن أن يرضى عن زواجها من الشيخ زغلول .. من المسئول عن هذا المأزق الذى وجد

نفسه فيه ؟ هذا على أية حال ليس وقت الحساب .. المهم أن يحاول إنقاذ الموقف .. لعل وعسى .. !

واستقبلته والدته بابتسامة عريضة ، وقدمت له كوباً من عصير الليمون الذى تعرف أنه يفضله ، وفى هدوء قالت : أنا أعرف السبب الذى أتى بك فى هذه القيلولة .. !

حاول أن يقول لها : إنه حضر ليطمئن على صحتها ، حاول أن يقول لها : أى شىء .. لكن ماتت الكلمات على شفتيه ، كانت ابتسامتها باهتة ، لكنها كانت تدل على الإصرار والعزم .

وآثر فكرى أن يصمت قليلاً ويترك لها حبل الحديث ..

وانساب صوتها هادئاً ، لكن لايخلو من نبرة حزن : «أنت تذكر قصة العام الماضى عندما طلقنى والدك دون مبرر فى لحظات » ولم تنتظر أن يرد عليها فكرى . وإنما استرسلت قائلة : بعد أشهر قليلة عرفت سر تلك المشاجرة وسر الطلاق .. وكتمت السر فى صدرى الشهور الطوال ..لقد تزوج والدك .. تزوج فى الليلة ذاتها فاطمة .. نعم فاطمة بنت عيوشة الخادمة التى تعيش فى منزله فى القرية .. ومنذ ذلك التاريخ ازداد التصاقاً بالقرية .. وابتعد عن العاصمة .. وبعد ذلك بشهور اشترى عشرة أفدنة باسم فاطمة ووعدها بالمزيد !

إن فاطمة جميلة وفى ربيع العمر ومن حقه وهو رجل ثرى أن يتزوج من يشاء ! . ويهب أملاكه لمن يشاء ! هذه مسألة شخصية .. لن أقول مثله : إنها تتعلق بشرف الأسرة وسمعتها . ! لكنى أقول : إن من حقى كإنسان أن أتصرف كما أشاء ! لقد أصبحت حرة منذ أكثر من عام ، وقد كان من أسابيع قليلة يحتفل بعيد زواجه من فاطمة .. وفى الليلة ذاتها احتفلت أنا بزواجى ووقف فكرى مرتاعاً وهو يسأل « هل تزوجت فعلاً أو أنها إشاعة ؟ » أنا لا أتصور أن والدتى تتزوج وهى فى

سن الستين ! . غير معقول ! وأخذ الزبد يتطاير من شفتيه وهو يردد .. «غير معقول» وأشارت والدته أن يجلس ليستريح وقالت : «أنا أقدر موقفك .. لكن ماذا تفعل أى إنسان لو كانت مكانى .. انظر إلى هذه الورقة تأمل سطورها .. إنها صورة رسمية من وثيقة زواج والدك من فاطمة .. هل كنت تنتظر منى أن أقبل رأسه ورأس فاطمة .. لكى ينفصلا إكراما لسمعة الأسرة ؟ أنا أعلم أنه متيم بها .. ويحبها من كل قلبه وزواج العام الماضى لم يكن مفاجأة . كنت أعلم أنه وعدها بالزواج من سنوات ومن أجل ذلك رفضت كل شباب القرية الذين تقدموا لخطبتها .. كتمت كل ذلك فى صدرى .. ولم أشأ أن أشعل النار بنفسى .. كل ذلك كان إكراما لك يا بنى ! وأخرج فكرى منديله الحريرى الصغير يجفف به عرقه .. ثم فجأة وجد نفسه ينتحب بصوت عال وهو يردد بعبارات تخنقها العبرات : «كيف أواجه الناس بعد ذلك ؟ كيف أستطيع مقابلة المستأجرين ؟ . بل كيف أستطيع لقاء أصدقائى ؟ إننى سأعتزل الحياة والناس ! . كيف أمشى فى طرقات القرية والناس يتهامسون هذا والده تزوج البنت الخادمة . ووالدته تزوجت فى سن الستين الشيخ (زغلول) ؟» .

وفجأة وجد نفسه يسترد رباطة جأشه ويقول : «لدى حل لكل هذه الأمور» وقاطعته والدته «أنا أعرف هذا الحل جيداً . لكنى مع الأسف أرفضه .. أنت تقترح أن يطلق والدك فاطمة وأطلق أنا من الشيخ زغلول مع الأسف .. كما يقولون .. سبق السيف العذل ! أنا لم أعد ملك نفسى ! .. وماذنب فاطمة أن تطلق بعد عام من زواجها ؟ .. وماذنب الشيخ زغلول أن أطلب منه الطلاق ؟» .

وفى صوت متهدج أردفت : أنت لست صغيراً ويجب أن تعرف الحقيقة كاملة حتى لو كانت قاسية مؤلمة .. لقد عشت أنا ووالدك أربعين عاماً محرومين من السعادة !

لقد وفرت له فاطمة السعادة التى كان يتوق إليها .. ووفر لى الشيخ زغلول

السعادة التى حُرِمتُها ! . أمر عجيب حقًّا أن تصل إلينا السعادة ونحن فى خريف العمر ، لكنها تصاريف القدر !

ودق جرس التليفون فإذا به محسن شقيق فكرى يسأل عنه ويخبره أن والده نقل إلى المستشفى إثر نوبة قلبية ويطلب منه أن يلحق به على الفور .

ونظر فكرى إلى والدته متوسلاً دون أن ينبس ببنت شفة .. لكنها قالت : «قد تكون هذه تمثيلية وقد تكون حقيقة .. لقد عشت مع والدك تحت سقف واحد أربعين عاماً وأنا لا أتمنى له إلا كل خير .. وأنا على استعداد لأن أذهب معك إلى المستشفى لزيارته .. لكن هذا شىء وذاك شىء آخر ..

إنها كما قلت لك تصاريف القدر .

وقبل أن يغادر فكرى المنزل قال لوالدته :

«للمرة الأخيرة .. أرجوك .. أتوسل إليك من أجل إنقاذ حياته .. من أجلى أنا .. أتوسل إليك .. ارحمينى .. » وانحنى على يدها فقبلها

وجاء صوتها هادئاً رزيناً .

«سأفكر فى الأمر ، لكننى لا أستطيع أن أعد بشىء ! »

الثوب الأزرق

دخل الناظر حجرة الدراسة وعلى الفور أوقف الأستاذ حلمى الدرس وقال «قيام» ووقف التلاميذ جميعاً ورفعوا أيديهم بالتحية للسيد الناظر الذى رد التحية فى برود وأشار إليهم أن يجلسوا.

ووقف الناظر يقرأ الكشف الذى فى يده .. ثانية أول ثانية ثان .. ثانية ثالث .. نعم ثالث .. تلميذ واحد لم يدفع مصروفات الكتب .. على حسن عبد الحميد .. أين هو .. ؟

وفى منتصف الحجرة وقف تلميذ وقال : أفندم ورفع يده بالتحية ..

وقال الناظر فى عصبية ظاهرة : مضى أسبوعان والمدرسة تطلب منك سداد رسوم الكتب .. وأنت الآن تعطل نفسك وتعطل زملاءك أيضاً . لأنك تستعير كتبهم لاشك . يجب أن تخرج الآن وتتوجه إلى منزلك على الفور .. ولاتعد إلا ومعك الرسوم .. فهمت . !

وتوسط الأستاذ حلمى قائلاً .. إنه تلميذ نبيه ومتفوق فى الحساب .. والأفضل

أن يستمر فى الدراسة هذا اليوم ويحضر المصروفات غداً .

ورد الناظر فى حزم .. لا .. يبقى حتى نهاية هذه الحصة ، ثم يغادر المدرسة على الفور .. وأدار ظهره ، وغادر الحجرة وهو يلوح بالكشف الذى فى يده !

وعندما انتهت حصة الحساب بحث تلاميذ الفصل عن على فلم يجدوه .. كلفهم الأستاذ حلمى أن يبحثوا عنه فى فناء المدرسة فى الأروقة .. فى كل مكان .. ولكنه كان قد غادر المدرسة ..

خرج على من المدرسة هائماً على وجهه . يبكى أحياناً .. ويكلم نفسه أحياناً أخرى .. حتى وصل إلى متنزه عام وهناك فى ظل شجرة جلس يستريح ، ثم أخذته سنة من النوم .. رأى فى المنام أنه حصل على الدرجة النهائية فى الحساب ، وأنه فى نهاية العام كان أول المدرسة .. ثم رأى نفسه مهندساً كبيراً يدير المصانع ويشرف على الآلات .. !

ومرت ساعات وهو مستغرق فى النوم وفجأة أحس بيد تربت على كتفه فأفاق مذعوراً وهو يصيح : سأصبح مهندساً نعم مهندساً كبيرا برغم أنف السيد الناظر ! .. ورفع بصره إلى أعلى فإذا الشخص الذى يقف أمامه هو الأستاذ حلمى مدرس الحساب ، وانتصب على واقفاً وهو يقول : لاتؤاخذنى ياأستاذ ! .

أخذ الأستاذ حلمى يتأمله ، ثم قال ! لماذا غادرت المدرسة بسرعة هكذا ؟ .. ثم لماذا أنت هنا ؟ .. لماذا لم تتوجه إلى المنزل ؟ . وأجاب علىٌّ فى صوت حزين .. إننى لن أعود إلى هذه المدرسة بعد الآن ! .. والدتى ليس معها مصروفات الكتب ، نحن خمسة ووالدنا متوفى .. ومعاشنا ضئيل . والتلاميذ يعيرونني بالملابس القديمة .. لا لن أعود إلى هذه المدرسة .. سأعمل صبيًّا فى ورشة وأستذكر بعد الظهر !

ونظر إليه الأستاذ حلمى فى حنان وقال . لاعليك ، هاهى ذى المصروفات

احتفظ بها معك حتى الصباح ، ولاتأبه بكلام أحد .. أنت أذكى تلميذ فى الفصل وحرام أن تترك المدرسة هكذا ..

ومد الأستاذ حلمى يده بالنقود .. لكن (على) اعتذر : لقد عودته والدته ألا يأخذ نقوداً من أى إنسان .. ووقف الأستاذ حلمى يتأمل (على) وبه آثار الدموع .. وهو يتمتم .. ذكاء .. وعزة نفس .. ولم يملك إلا أن يعيد النقود إلى جيبه وهو يقول .. إذن تستأذن والدتك ! هذا دين سأسترده منكم عندما يوجد لديكم نقود .. أين منزلكم ؟

وأشار علىٌّ على استحياء إلى الطريق الذى يؤدى إلى المنزل ، وسار الاثنان جنباً إلى جنب ، أخذ الأستاذ حلمى يتلطف مع تلميذه .. حتى عرف كل شىء عن حياة أسرته ..

وعندما وصلا إلى المنزل تقدم على ليطرق الباب .. وفتحت والدته الباب وهى تسأله غاضبة : لماذا تأخر فى العودة ؟ . لم يرد عليها ، وإنما أشار إلى مدرسه وقال : الأستاذ حلمى مدرس الحساب يريد أن يتحدث إليك .. وأخذت تتأمل الأستاذ (حلمى) .. ثم تنظر إلى الغادين والرائحين فى الشارع .. وقالت : منذ وفاة المرحوم زوجى لم يزرنا أحد لكن تفضل يا أستاذ ، ودخل الأستاذ حلمى وجلس فى الصالة على كرسى قديم وتركت هى باب الشقة مفتوحاً ..

لم يدر الأستاذ حلمى كيف يبدأ الحديث ؟ جلس صامتاً مطرقاً برأسه إلى الأرض .. ثم رفع رأسه .. لكن قبل أن يبدأ الحديث بدا وكأن شيئاً قد عقد لسانه أخذ يتفرس الأم فى هدوء .. وهو يتمتم .. غير معقول ! .. غير معقول ! .. وتملك أطراف شجاعته وقال معذرة ياسيدتى .. هل كانت أسرتك تقطن يوماً فى دمنهور .. منذ عشر سنوات تقريباً ؟

ولم ينتظر منها رداً وإنما أردف قائلاً وهو يتأملها من جديد . كنت تقطنين فى

منزل يطل على الكوبرى .. منزل لونه أصفر .. وله شرفة مستديرة ..

وتوقف حلمى عن الكلام ، وأخذ يتمتم لاتؤاخذينى .. إنها مجرد ذكريات .. أنا آسف .. الآن نتحدث فى موضوع ابنك على ، إنه تلميذ نابه .. ومجد ..

وقاطعته فاطمة – وكان هذا هو اسم والدة على – لماذا لم تنتظر منى ردًّا على سؤالك ؟ .. نعم .. كنا نقطن فى ذلك المنزل منذ عشر سنوات .. لكن ما أدراك ؟ . وما المناسبة ؟

ووقف حلمى كالمشدوه .. وهو يردد : إذن أنت صاحبة الثوب الأزرق .. رباه من كان يصدق أننى سأعثر عليك يوماً ما ؟

واسترد حلمى رباطة جأشه وجلس يروى لها فى هدوء كيف أنه فى تلك السنوات كان يذهب لزيارة عمه الذى كان يقطن فى المنزل المواجه لمنزلهم ، كان يقضى بضعة أيام فقط خلال العطلة الصيفية ، لكن خلال تلك الأيام .. ولد فى قلبه حب عميق ، كان يتأملها صباح .. مساء .. ويود لو ألقى عليها بتحية الصباح أو المساء ! لكن خانته شجاعته .. كانت أجمل ما تكون عندما ترتدى الثوب الأزرق فى المساء وتقف تتحدث مع والدها فى الشرفة .. كان فى تلك السنة طالباً فى السنة النهائية بكلية العلوم .. وعندما صارح عمه بأنه معجب بابنة جاره تلك رد عليه بأن الطريق مازال أمامه طويلاً وعليه أن يلتفت لدراسته ومستقبله وخاصة أنه يعلم من زمن أن فاطمة مخطوبة لأحد أقاربها .. ووقف على مشدوها يتأمل المنظر الفريد : مدرسه الذى يخشى كل التلاميذ بأسه يتحدث إلى والدته فى هدوء .. بأسلوب عذب يفيض رقة وحناناً ، والدته يطفح وجهها بالبشر ! إنه لم يستطع أن يفهم شيئاً من حكاية دمنهور والشرفة والثوب الأزرق .. وصرخ فى براءة .. ياأستاذ ، لقد حضرت لتتحدث مع والدتى فى موضوع المصروفات .. المصروفات التى تريدها غداً المدرسة صباحاً ! وضحك الأستاذ حلمى ملء شدقيه وقال :

اطمئن ياعلى ستسير الأمور على ما يرام ، لن تكون هناك مشاكل بعد اليوم ..

وأطرق حلمى برأسه إلى الأرض . . وأطرقت هى أيضاً برأسها إلى الأرض . . وقال : عندما أعود فى المساء سأكمل لك قصتى ، لكن هل أستطيع مقابلة أحد من أهلك هذا المساء ؟ . .

وأجابته سيكون شقيق محسن حاضراً ، إنه الشخص الوحيد الذى يهتم بأمورى برغم ضيق ذات يده .. وهم حلمى بمغادرة المنزل ، لكنه التفت إلى على قائلاً : تعال معى الآن إلى السوق .. نجول قليلاً .. وأومأت والدته برأسها دليل الموافقة .. فخرج على يمسك بيد أستاذه وهو لا يكاد يفهم شيئاً من كل هذه الأمور .

وفى الصباح الباكر شاهد تلاميذ المدرسة (على) يحضر إلى المدرسة فى ملابس قشيبة زاهية . ولفرط دهشتهم يلبس فى يده اليسرى ساعة أنيقة ، لكنه لم يكن بمفرده .. كان معه الأستاذ حلمى مدرس الحساب .. توجه الاثنان إلى مكتب سكرتير المدرسة حيث دفع على مصروفات الكتب .. وقال الأستاذ حلمى للسكرتير : اكتب عندك فى السجلات إننى ولى أمر التلميذ على حسن عبد الحميد ! وتوجه على بعد ذلك إلى الفصل .. وعندما اقترب الأستاذ حلمى من حجرة الدراسة فى فصل ثانية ثالث – سمع همهمة بين التلاميذ ووجد (على) يقف متروياً وفى عينيه الدموع .. ودخل الفصل .. وقبل أن يبدأ الدرس قال بصوت عال : إن (على) منذ اليوم هو ابنى ومن يسئ إليه فسأبلغ أمره السيد الناظر ، وسيفصل من المدرسة على الفور .. أنت يازكى أنا أعلم أنك تلميذ مشاغب تحب معاكسة زملائك لكن السيد الناظر لن يرحمك .. ستكون أول من يفصل من المدرسة .. مفهوم ..

وبدا على التلاميذ الوجوم على حين انفرجت أسارير على .. وهو يستمع إلى بداية شرح الدرس الجديد ! . .

الليلة الأخيرة

كان الشارع يبدو مقفراً معتماً ؛ فقد كانت ليلة من ليالى شهر ديسمبر ، وكان الليل قد انتصف منذ قليل ، ولم تكن رشيدة تلمح وهى تحث الخطى نحو منزلها سوى جندى الدورية وهو يذرع الشارع الضيق بخطى بطيئة متثاقلة .

وأمام المنزل الصغير الذى فى نهاية الشارع وقفت رشيدة تلتقط أنفاسها وتتأمل المنزل وتنقل بصرها بين نوافذه وجدرانه ، من كان يصدق أن النهاية ستأتى سريعة هكذا ؟ هذا المنزل الذى عاشت فيه صباها وشبابها لن يحتويها بعد ذلك إلا ليلة واحدة ، وفى الغد ستنقل من هذا الحى إلى أحد الأحياء الراقية ، ومن هذا المنزل المهدم إلى منزل أنيق يطل على الشاطئ !

وفى طريقها إلى حجرة السطوح التى كانت تقطن فيها مع والدتها – كانت صورة عبد النبى بابتسامته المشرقة وحديثه العذب فى اليومين الأخيرين لاتفارق مخيلتها .. كم ظلمته وأساءت الظن به ! وتنهدت وهى تقول لنفسها : هذا إنسان نبيل .. (ملاك) فليسامحنى الله .

كان عبد النبي هذا صديقاً لشقيقها رفعت وكانت تراه كلما ترددت على منزل شقيقها الذى يقرب من منزلهم . وكانت كلما لاقته تلمح فى عينيه إعجاباً متزايداً لكن لم يحدث أن تبادلا الحديث على انفراد ، وعندما زفت إلى زوجها الأول عبد السميع أتتها زميلة لها تخبرها أن عبد النبي حزين ، وأنه كان يرغب فى التقدم لخطبتها لولا معارضة أهله .

ولم يستمر زواجها من عبد السميع سوى ثلاثة أسابيع ، كانت والدته تريد منها أن تساهم براتبها كله فى مصروف المنزل ، لأن راتب زوجها كان لايكاد يفى بمصروفات الإيجار والنور والمياه ! . ولم تكن رشيدة لتقبل ذلك الحل ؛ لأنها كانت تدفع نصف راتبها سداداً لأقساط الأثاث وكانت تريد ادخار النصف الباقى للمستقبل .. وذات مساء لاقاها عبد النبي وهى فى طريق عودتها إلى المنزل ، وسألها عن أحوالها ، ولم تخف عنه شيئاً : صارحته بالموقف على حقيقته ، ودون أن تشعر وجدت نفسها تبكى !

ونظر إليها عبد النبي فى إشفاق وقال لها : هل تستطيعين أن تحصلى على الطلاق ؟ فأجابته فى هدوء : إن والدته تتمنى ذلك اليوم ! .

وابتسم عبد النبي وهو يقول : «إذن تخلصى منه بأسرع مايمكن .. ودعى الباقى لى .. » ولمح فى عينيها تساؤلا فاستطرد قائلا : سنعقد قراننا بعد العدة مباشرة وتهلل وجه رشيدة ، لكنها ما لبثت أن سألته فى صوت خفيض : وأهلك ؟ فأجاب : لا عليك من أهلى إننى حر التصرف فى كل أمورى .. وسترين بنفسك أننى سأكون عند وعدى !

وتم كل شىء طبقاً للخطة المرسومة .. وقّع الزوج وثيقة الطلاق .. ووضعت الأثاث فى حجرة فى منزل خالتها . وعادت إلى حجرة السطوح تعيش مع والدتها حتى تتم العدة .

ولم يخيب عبد النبى ظنها .. عقد قرانه عليها ، لكنه اشترط أن تبقى فى منزل والدتها بعض الوقت ريثما يحصل على موافقة أهله ؛ وكان يتردد عليها من وقت لآخر ..

ومر شهر وشهران ، ثم طالبته بالانتقال إلى منزل خاص بهما فصارحها فى ضيق بأن أهله قد تسرب إليهم نبأ زواجه ، وأنهم ثاروا فى وجهه وهددته والدته ، وسوف تسجل المنزل الذى تمتلكه باسم باقى إخوته وتحرمه من الميراث إن هو أبقى على زواجه منها ! وسألته رشيدة فى كمد وغيظ ! وما الحل ؟ فأجاب فى برود لاشىء ! نتظر قليلاً حتى تتحسن صحة والدتى ثم أعاود بحث الموضوع !

وبعد ذلك انقطع عن زيارتها ثلاثة أسابيع كاملة إلى أن انتظرها منذ يومين وهى تغادر سيارة الشركة ، وأشار إليها وتبعته وقلبها يرقص طرباً .. وفى ركن منزو وقفا يتحدثان فى مودة .. أخبرها أنه أعد للأمر عدته وأنه موافق على إعلان نبأ زفافه ، وسينتقل معها إلى شقة أثثها فى حى راق قرب الشاطئ ، وكل مايطلبه منها أن تدفع إليه مبلغ المائتى جنيه الذى كانت تحتفظ به لجهازها حتى يستطيع أن يسدد ديونه !

وأجابته فى لهفة فداك هذا المبلغ وأضعافه ! المهم أن نعيش معاً تحت سقف واحد ..

وودعها على أمل اللقاء فى اليوم التالى ، وفى الموعد المحدد التقيا .. توجها إلى المنزل الجديد حيث زارا العش المنتظر ، كانت الشقة تطل على البحر ومؤثثة أثاثاً فاخراً وسألته : كل هذا بمائتى جنيه ؟ فأجابها : «لا بالطبع ، لقد تكلفت أموالاً طائلة ! لكننى لا أستطيع أن أطلب منك سوى ما ادخرته طوال السنين الماضية ، واستطعت والحمد لله تدبير باقى المبلغ ! » .

واتفقا على أن تحضر له رشيدة مبلغ المائتى جنيه فى اليوم التالى ، ويتم انتقالها إلى الشقة على الفور !

مرت هذه الخواطر بذهن رشيدة وهى تقفز على درجات السلم المؤدى إلى حجرتها على السطوح ، وقبل أن تصل إلى السطوح وقفت تلهث أمام شقة الحاجة عزيزة .. ويبدو أن الحاجة عزيزة أحست بوقع أقدامها ففتحت الباب ، ولما شاهدتها ابتسمت . ولكن رشيدة أشاحت بوجهها وقفزت على الدرجات الباقية وهى تكتم ضحكة مدوية كانت تود لو أطلقتها فى وجه الحاجة .. إن هذه العجوز الشمطاء لما أحست بانقطاع عبد النبى فى الأيام الأخيرة هيئ لها أنها تستطيع أن تصيد فى الماء العكر ، وأخذت تتودد إليها . وكانت رشيدة تعلم يقيناً أن هذا التودد يخفى وراءه رغبة ملحة من الحاجة فى أن تجعل منها زوجة ثانية لابنها عبدالله الذى يملك دكاناً لبيع السجائر والذى ماتت عنه زوجته منذ سنتين ، وكانت رشيدة ترحب بهذه المودة الطارئة منذ أيام أما الآن فهى ستعود إلى زوجها الثانى معززة مكرمة .. ستعيش فى الأحياء الراقية وستترك هذا الحى المتواضع للحاجة عزيزة وابنها .. ومن يدرى فقد يكفيها زوجها مئونة العمل فى الشركة التى فى مدينة كفر الدوار وبذلك تصبح ست بيت وتتفرغ لإدارة شئون منزلها وتربية هذا الجنين الذى يضطرب بين أحشائها !

آه لو علم عبد النبى بأمر هذا الجنين إذاً لجن فرحا ، لقد أخفت عنه هذا النبأ حتى الآن ليكون أول مفاجأة تقدمها له بعد انتقالها للمنزل الجديد ..

ودست رشيدة يدها فى جيبها وأخرجت مفتاح الحجرة .. وفى هدوء فتحت الباب . وأضاءت الحجرة .. كانت والدتها تغط فى نوم عميق .. فأغلقت الباب وبدلت ملابسها ، ثم أطفأت النور واستسلمت لأحلام جميلة ، وفى الصباح أخبرت والدتها أن المياه قد عادت إلى مجاريها بينها وبين زوجها ، وأخذت تعنف والدتها ؛ لأنها أساءت الظن به ، ونظرت إليها والدتها فى ذهول وقالت : «أنا لا أبغى سوى سعادتك ربنا يتمم بخير .. » .

لم تشأ أن تأخذ إجازة من الشركة حتى لاتلحظ زميلاتها شيئاً غير عادى .. أرادت أن يكون انتقالها إلى المنزل الجديد مفاجأة للناس جميعاً لا تُعْلن إلا بعد حين ! لكنها لم تستطع أن تخفى سرورها وسعادتها وهى تندس بين زميلاتها فى عربة الشركة التى تقلهن كل صباح إلى المصنع الذى فى ضواحى المدينة . جلست بجوار سميرة كالعادة فنظرت إليها سميرة فى دهشة : مالك تبدين اليوم مرحة على غير عادتك ؟ هل هناك جديد ؟ فأجابتها رشيدة فى خبث ! لا ، فقط حلمت بالأمس حلما جميلا اللهم اجعله خيراً .. وتشاغلت عن سميرة بالنظر إلى جريدة فى يدها .

وعندما وصلت السيارة إلى مشارف المدينة فى طريقها إلى المصنع سمعت حواراً يدور بين أميرة وزكية اللتين كانتا تجلسان أمامها : كانت أميرة تتحدث عن شقة فاخرة تطل على البحر ، وأصاخت نوال السمع ، عجباً إنها مواصفات الشقة نفسها التى زارتها مع زوجها بالأمس .. العنوان نفسه .. كادت تتدخل فى الحديث لكنها ضغطت على شفتيها . وأنصتت إليهما وهى تتظاهر بقراءة الجريدة .

وتناهى إلى سمعها صوت أميرة وهى تردد هذه العبارات : «لم يكن فى وسع ليلى أن ترفض .. لقد تعهدت والدته أن يتم الطلاق قبل زفافه إليها .. العجيب أنه سيتم الطلاق قبل الزفاف بساعة أو ساعتين علمت أن العريس احتاط للأمر ولن يدفع لانفقة ولا مؤخراً .. » وضاعت بعد ذلك باقى الكلمات بين ضجة موتور السيارة وصراخ السائق وهو يجتاز أحد المنحنيات .

وتشبثت رشيدة بالكرسى وهى تسمع زكية تلقى هذا السؤال : «وأين يعمل الزوج ؟ » وتناهى إليها صوت أميرة خافتا : «سمعت أنه يعمل فى إحدى شركات الملاحة .. موظف بسيط لاشك ، لكن والدته ثرية وهو عريس قمر» .

وعندما وصلت العربة إلى المصنع كان الإعياء قد بلغ برشيدة كل مبلغ فتوجهت على الفور إلى مكتب طبيب الشركة ، وطلبت منحها إجازة ثلاثة أيام .. وفى أقل

من ساعة كانت فى منزلها مرة ثانية ..

وعلى الباب فوجئت بزوجها وهو يغادر الحجرة وقد بدت على محياه دلائل الغضب .. وفى منتصف الحجرة كانت والدتها تقف تقدح عيناها بالشر .. وتلوح بيديها «ماذا حدث» .

وردت والدتها فى انفعال «اسأليه» ..

وأدار عبد النبى ظهره وهو يستعد للنزول وقال «لاتنسى موعدنا الليلة يارشيدة .. إن والدتك تحاول أن تخرب بيتى وبيتك .. إنها لاتقدر حبنا .. إذا لم تحضرى فستكونين الجانية على نفسك ! .» ومدت رشيدة يدها تمنعه من النزول وأشارت إلى داخل الحجرة وقالت : «تفضل نتفاهم فى هدوء .. » فدخل مطأطئ الرأس .. ومرت دقيقتان لم ينبس فيهما ببنت شفة .. ثم قال موجهاً الكلام لوالدة رشيدة .. فلنفرض أننى أريد السوار لكى أبيعه .. ماذا فى ذلك ؟ لقد أثثت لها شقة بألف جنيه وأنا الآن مدين وأريد أن أسدد دينى .. »

وتجاهلت رشيدة هذا الحديث وقالت :

– لقد أعددت لك مفاجأة سارة الليلة .

– المائتا جنيه .. أليس كذلك .. لاحرمنى الله وإياك .. !

– لا ، هناك شىء أهم من المائتى جنيه .. شىء عزيز على كل أب .

– شىء عزيز على كل أب .. لكننى لم أصبح أبا بعد .

– ستصبح ياعزيزى فى القريب العاجل ، وأشارت إلى مكان الجنين ، مارأيك فى هذه المفاجأة السارة .

– لكنك لم تخبرينى بذلك من قبل !

– لقد أردت أن تكون مفاجأة الليلة السعيدة .. ليلة انتقالنا إلى المنزل الجديد .. مالك تبدو مهموما هكذا ؟

– لا ، لكن هذه .. هذه مسألة معقدة .. أقصد ستعقد الأمور .. لا ، لابد من التخلص من الجنين بسرعة .. أنا لا أريد مشاكل .. مارأيك فى أن تصحبينى الآن إلى الطبيب ؟

– وانطلقت من فم الأم صرخة : «إياك يارشيدة أن تصدقيه .. إنه يريد أن يجهضك ليتخلص منك » ونظر إليها عبد النبى فى إعياء ثم قال : «لا ، أنا أحبها وسأتزوجها .. لكننى لا أريد أولاداً فى الوقت الحاضر .. إن مرتبى لا يسمح لى بالإنفاق على أولاد ! » .

وفى تحد نظرت إليه رشيدة قائلة : «افعل ماتشاء .. لكننى لن أفرط فى هذا الجنين مهما كان الثمن » واربدّ وجه عبد النبى ووقف فى منتصف الحجرة وصاح : «إما أن تتخلصى من الجنين فوراً .. وإما فإننا .. » وقاطعته رشيدة أنا أعلم أننى سأطلق الليلة لامحالة لكى يتم لك الزواج من العروس الجديدة . . ليلى هانم المهم أن ليلى لن تتزوج رجلاً عنده أولاد » .

وأمسكها عبد النبى من كتفيها وأخذ يهزها وهو يقول : «أنت كاذبة .. أنت شيطانة .. لكننى لن أسمح لك بتحطيم مستقبلى .. أنت .. أنت .. ! »

وأشارت رشيدة إلى الباب وقالت له : «تستطيع أن ترسل ماتشاء بالبريد .. أما الآن فتفضل بالخروج ! »

وعلى الباب وقفت رشيدة وأمها ترمقانه وهو ينزل فى بطء فى درجات السلم المتآكل .. ولمحت رشيدة الحاجة عزيزة على السطوح ، فتوارت تلك منها ، ولكن رشيدة نادتها ودعتها للدخول لتشرب فنجاناً من القهوة وما إن استقرت الحاجة على المقعد حتى ارتمت رشيدة فى أحضانها وانهمرت دموعها !

للذكرى

كنت أجلس فى استرخاء على أحد المقاعد فى حديقة هايدبارك أتأمل البط وهو يسبح فى البحيرة التى تتوسط الحديقة عندما أقبلت فتاة خمرية اللون ممشوقة القوام تلبس نظارة سوداء ، حيتنى باللغة الإنجليزية ، واستأذنت فى الجلوس على المقعد بجوارى .. رددت عليها التحية وقلت لها بالإنجليزية تفضلى .

جلسنا برهة قصيرة صامتين نتأمل البط وهو يسبح ، ثم قطعت حبل الصمت بقولى : « إن ملامحك غريبة .. أرجو ألا أكون مخطئا فى هذا الاستنتاج ! »

وعلت شفتيها ابتسامة عريضة ، وأزاحت جانبا من شعرها الأسود الناعم الذى يتدلى على كتفيها وقالت بالعربية « أنا عراقية من بغداد وأنت .. ؟ »

أنا مصرى من القاهرة .. لكننى أحن إلى بغداد ولياليها .. ودروبها وشارع الرشيد وحى الأعظمية وضفاف دجلة .. أيام لاتنسى زرت فيها النجف وكربلاء والبصرة ! .. كان ذلك من عشر سنوات ومع ذلك مازالت ذكرى الأيام الحلوة تعيش فى خاطرى فيعاودنى الحنين إليها ! » .

واقتربت منى قليلا واسترسلت فى حديثى عن بلدها وهى كالمشدوهة ، وبعد قليل وجدنا أنفسنا ننتقل إلى موضوعات أخرى .. تحدثنا فى كل شىء : تحدثنا فى التاريخ ، وفى الأدب .. والفن . والسياسة . والفلسفة . والاجتماع .. كان حديثها عذباً ممتعاً ، كانت تجمع بين سعة الأفق وسعة الخيال ! .

كنا نختلف فى الرأى أحياناً .. لكن حلاوة الحديث وبهجته طغت على كل خلاف !

وفجأة وجدتها تستدير وتسألنى : « لم تقل لى ما الذى أتى بك إلى لندن ، وإلى هذه الحديقة بالذات وحيداً هكذا ؟ » وصمت قليلاً ثم أجبتها وأنا أطرق برأسى إلى الأرض : « لذلك قصة .. كنت اعتزم أن أكتمها فى صدرى .. لكن لابأس ، سأرويها لك » .

ومرت فترة صمت .. كانت كافية لأستعيد ذكريات الماضى ..

ورويت لها بعد ذلك كيف كنت أحضر مع زوجتى كل عام فى مثل هذا الوقت من السنة ونجلس معاً فى المكان ذاته ساعات وساعات نرقب البط وهو يسبح فى البحيرة .. ثم ننصرف وقد تأبط كل منا ذراع الآخر؟ .. أما هذه المرة الأخيرة .. فقد أتيت وحيداً بعد أن رحلت شريكة حياتى عن هذا العالم فى حادث تصادم !

وقد أتيت إلى لندن وإلى هذا المكان بالذات لكى أفر من الواقع الذى أعيش فيه .. وإجلالاً لذكرى العزيزة الراحلة .

وعندما أتممت حديثى بدا على وجهها التأثر وقالت : إنك لم تسألنى بدورك عن سبب حضورى . لا عليك ، أنا سأروى لك قصتى ، إنها تشبه قصتك تماماً »

وأخذت فى صوت هادئ حزين تروى قصتها : فى المكان ذاته منذ خمس سنوات كانت تدرس الفلسفة فى جامعة لندن التقت هى وشاب عربى كان يعد درجة الدكتوراه فى الفلسفة وتكرر اللقاء أياما وأسابيع تواعدا بعدها على الزواج بعد

أن يحصل على درجة الدكتوراه ويعود إلى وطنه .. واستمرت الرسائل بينهما بعد أن عاد إلى وطنه .. وفجأة انقطعت الرسائل ، فأرسلت إليه برقية لكن دون جدوى ! .. ومرت شهور قضتها فى قلق وحزن عميقين .. وأتى إلىّ بعد ذلك من ينبئنى بأنه لقى ربه فى حادث تصادم !

وتنهدت سلمى .. وكان هذا هو اسمها .. ثم أردفت قائلة :

«ومن أجل هذا أنا أحضر مثلك إلى هذا المكان للذكرى .. »

وسألتها عن اسم ذلك الشاب الذى مازالت تحترم ذكراه ..

وهنا اغتصبت ابتسامة وقالت : «عجباً .. هل أنت مصمم على معرفة اسمه ؟ إنه مصرى على أية حال .. اسمه محمود .. »

واعترانى ذهول عجيب .. هل أنا فى حاجة لكى أصارحها أن محموداً هذا كان شقيقى ! أو أكتم السر بين جوانحى .. حتى لا أثير شجونها .. إن إذاعة السر لن يجديها شيئاً .. والأفضل أن نغير مجرى الحديث .

وأخذت سلمى تتأملنى برهة قصيرة وقالت : «لماذا أنت صامت ؟ . هل كنت تعرفه ؟ ياإلهى إنك تشبهه تماماً «ووجدتنى دون أن أشعر أخبرها فى هدوء أن (محموداً) كان أخى الأكبر .. وأنه كان يحبها فعلاً ويعتزم الزواج منها لولا فجاءات القدر . وأخذت أتأمل تقاطيع وجهها وهى تسمع هذا السر ..

كانت أسارير وجهها تنطق بأشياء كثيرة فى وقت واحد .. الدهشة .. الحيرة .. الألم .. ثم ابتسامة ذابلة تعلو شفتيها .. !

ورأيت أن أغير مجرى الحديث فعرضت عليها أن نجول فى الحديقة .. توجهنا إلى النافورات المجاورة للبحيرة .. أخذت تتأملها وقالت : «هكذا الحياة .. تتدفق كما تتدفق المياه من هذه النافورة .. ثم تصب فى النهر الكبير الذى نسميه الكون .. »

ووجدتنى أقول لنفسى .. فيلسوفة .. وقد قست عليها الظروف .. وجُلْنا طويلا

فى الحديقة .. لم نشعر بمرور الوقت .. لم نشعر بمن حولنا من الناس .. ترى هل ألفت المحنة بين قلبينا ، أو أن تقاطيعى التى تشبه تقاطيع أخى هى التى جذبتها إلى .. لكن ما بالى أنا أيضا أنجذب إليها بشدة ؟ هل هو عطف عليها أو إعجاب بثقافتها أو هو حب حقيقى ؟ . وهل يولد الحب هكذا سريعاً فى دقائق وساعات ؟ .. ووجدتها ترد علىّ : لم لا ؟ . إنها فرصتك الأخيرة فى الحياة ولاتدعها تفلت من يدك .

وعندما انتهينا من الجولة فى الحديقة وجدتها تسألنى : «متى تسافر إلى القاهرة ؟»

قلت لها فى هدوء «كما تحبين»

وعدت أسألها «متى تسافرين إلى بغداد ؟»

فأجابت ضاحكة «كما تحب» .

وقلت «أنا أعرف التقاليد الشرقية .. وأحترمها .. سنسافر إلى بغداد أولا ثم نذهب معاً إلى القاهرة .. ما رأيك .

وهزت رأسها موافقة .

وتواعدنا على اللقاء فى اليوم التالى فى المكان ذاته لنذهب إلى شركات الطيران . . وافترقنا .

وكانت ليلة مملوءة بالأحلام السعيدة .. لقد آن الأوان لكى يضع القدر حداً لوحدتى وتعسى .. هذه (الإنسانة) الذكية الجميلة ستكون خير رفيقة لدربى فى هذه الحياة ..

وفى الصباح مررت على موظف الاستعلامات فى الفندق أسأله : هل هناك رسائل من مصر؟ فسلمنى ظرفا يحمل اسمى ، لكنه كان خالياً من طوابع البريد !

وفتحت الخطاب .. كان بتوقيع سلمى .. سلمى من .. حبيبتى .. وأخذت

السطور تتراقص أمام عينى ..

وأعدت قراءة الخطاب مرة ومرات وأنا لا أصدق عينى ..

صديقى العزيز ..

معذرة ياصديقى .. لن نتمكن من اللقاء اليوم أمام البحيرة .. ولن نتمكن من السفر معاً كما اتفقنا .. عندما يصلك خطابى هذا ستكون الطائرة التى تقلنى محلقة فى سماء لندن وأنا عائدة إلى أرض الوطن .. لكن أرجو ألا يخطر ببالك ولو للحظة واحدة أننى خدعتك ..

أنا أقدر كل عواطفك وأبادلك إياها .. ومن أجل هذا ومن أجل أننى أحبك .. حزمت حقائبى .. وتركت لندن على الفور ..

الحقيقة المرة يا صديقى العزيز أننى أخشى عليك من اللعنة ! .. نعم اللعنة ! لقد خطبت ثلاث مرات .. وفى كل مرة .. كان خطيبى يموت قبل القران بأيام !

ولأننى أحبك .. أريدك أن تعيش .. أريدك أن تتمتع بالحياة ! ..

معذرة مرة أخرى يا عزيزى

وأرجو أن تحتفظ بخطابى هذا إذا شئت للذكرى .

ووضعت الخطاب فى جيبى وأخذت أسأل نفسى . هل دائماً لحظات السعادة قصيرة .. أو أن السعادة تسعى فى هذا العالم إلى بعض الناس دون بعضهم الآخر ؟

وساقتنى قدماى دون أن أشعر إلى حديقة هايدبارك ، وجلست على المقعد المواجه للبحيرة أرقب البط وهو يسبح فى نشوة وأردد للذكرى .. للذكرى .. !

فوق السحاب

أفاق عبد الفتاح من إغفاءته القصيرة على صوت مضيفة الطائرة تسأله فى رقة هل يريد شيئاً من المرطبات ؟ طلب منها قدحين من عصير الأناناس ، ونظر إلى ابنه علاء الذى كان يجلس على المقعد المجاور له فى الطائرة ويغط فى نوم عميق .

وأخذ عبد الفتاح يتأمل وجه ابنه .. إنه جميل لاشك ؛ كانت خصلات شعره الأصفر الناعم تتدلى فوق جبهته وابتسامته الملائكية تعلو شفتيه وهو نائم ، وهو فوق ذلك ذكى هادئ الطبع رقيق المشاعر يحبه كل الناس ، ماذا لو قدر الله أن يعيش حتى يصبح طبيباً أو قاضياً أو مهندساً إنه سيكون فخوراً به .. ليس المهم أن يعيش هو حتى يرى ابنه فى هذا المركز .. لكن المهم أن يعيش علاء ويشب عن الطوق .. ويصل إلى مرحلة الرجولة !

وهنا أحس بقلبه يعتصر .. لقد ولد ابنه علاء وفى قلبه عاهة .. هذا قدره .. وقد تأجل موعد إجراء العملية الجراحية عدة مرات .. كان رأى الأطباء أنه لا يزال ضعيفاً لا يحتمل إجراء العملية ، أما هذا العام فقد اتفق رأيهم على إجرائها .. إذا

نجحت العملية فسيعيش بالطبع سليماً معافى . سيصبح شخصاً مشهوراً وسيخدم بلده وسيخدم الإنسانية .. لكن إذا فشلت العملية .. فماذا يحدث ؟ وأحس برجفة شديدة .. فى مثل هذه الحالة سيعود .. لا ، لا وأخذ عبد الفتاح يطرد هذه الأفكار السوداء من رأسه ! لماذا يدع هذه الأفكار تتسلل إلى رأسه قبل إجراء العملية بيومين ؟

وجاءت المضيفة تحمل قدحى عصير الأناناس فقطع ذلك حبل تفكيره .. أخذ قدحه وشربه .. ووضع القدح الآخر أمام ابنه .. ولم يوقظه من النوم .. ما أحلى الطفولة وبراءتها ! إن علاء يعلم أنه مريض بقلبه .. ومع ذلك فهو دائماً مبتهج .. باسم الثغر .. حتى وهو نائم يبدو وكأنه فى سعادة غامرة ..

واستسلم عبد الفتاح للنعاس مرة أخرى ورأى فيما يرى النائم أنه وابنه علاء يسيران فى صحراء قاحلة مترامية الأطراف وتبدو على البعد بحيرة يلمع سطحها فى ضوء الشمس ورأى نفسه يحمل ابنه على كتفيه ويغذ السير نحو البحيرة !

ووصل إلى شاطئ البحيرة مجهداً فجلس يستريح وجلس بجواره .. وأحس بقوة تدفعه لأن يقترب من الماء .. وغاص فى الماء بقدميه وهو يحمل ابنه على صدره .. أحس بشىء يجتذبه أكثر فأكثر نحو البحيرة .. فأخذ يتقدم .. وفجأة انشق الماء عن امرأة فى ثياب بيضاء .. كادت تفلت منه صرخة .. لكن المرأة قالت له لا تنزعج .. أعطنى هذا الطفل الجميل .. ولم تنتظر منه رداً على قولها .. أخذت منه ابنه فى هدوء .. وأدارت ظهرها له .. وسمعها تتمتم سأغسل قلبك بماء البحيرة هذه .. ستغسل قلبه .. كيف ؟ كاد يسقط فى البحيرة ، لكنه استطاع تملك نفسه طلب من المرأة أن تستدير نحوه وتعيد إليه الطفل ، لكنها ردت عليه فى هدوء انتظر حتى أعيد القلب مكانه .. لا داعى لأن ترى هذا المنظر وأنت أب .. لقد غسلت قلبه .. ألا تشكرنى ؟ .. واستدارت المرأة ذات الملابس البيضاء .. وأخرجت من ملابسها

كوباً فارغاً .. قالت وهى تخاطب الطفل : والآن ياعزيزى علاء .. عجباً كيف عرفت المرأة اسم ابنه ؟ واستطردت المرأة قائلة وهى تملأ الكوب الفارغ من ماء البحيرة الآن يجب أن تشرب هذا الكوب من يدى أنا ، وشرب علاء الكوب ووجد المرأة تناوله ابنه وتقول : اذهب فى هدوء أنت رجل طيب ، ومن حسن حظك أنك وجدتنى اليوم ، لقد شفى ابنك تماماً .. وفى لحظات اختفت المرأة تحت الماء .. ووقف برهة قصيرة يتأمل سطح البحيرة الساكن .. ووجد نفسه يحمل ابنه ويعود أدراجه نحو الشاطئ . !

وأفاق عبد الفتاح من نومه على صوت مذيع الطائرة يعلن أن الطائرة الآن على ارتفاع كذا ألف قدم .. وأنها بالضبط فوق إحدى البحيرات التاريخية .. ونظر عبد الفتاح من نافذة الطائرة قائلاً : عجباً .. إنها تشبه البحيرة التى رآها فى الحلم تماماً .. إنها تكاد تكون هى .. وهنا مرت المضيفة والتقت عيناهما .. كاد يصرخ ووقف مبهور الانفاس .. سألته هل هو فى حاجة إلى شىء ؟ ولم يرد عليها أخذ ينقل بصره بينها وبين ابنه النائم وقدح العصير الذى أمامه .. وقال لها أرجو لو سمحت وتعثرت الكلمات على شفتيه .. أرجو أن تناوليه قدح العصير .. إنه لاشك فى ظمأ شديد ..

– لكنه نائم .

– سأوقظه أنا .

وأيقظه فى رفق .. وناول المضيفة القدح وقال : أرجو أن تدعيه يشرب الأناناس من يدك أنت .. أرجوك .. وابتسمت المضيفة .. وقالت فليكن ..

وعاد يتأملها مرة أخرى ملامح وتقاطيع المرأة التى انشقت عنها نفسها مياه البحيرة فى الحلم وغسلت قلب ابنه ..

وقال لها على استحياء لا تؤاخذينى .. ماذا كنت تعملين قبل أن تصبحى مضيفة .. قالت مساعدة لأحد الأطباء !

- ولماذا تركت ذلك العمل الإنسانى ؟

- لم أتركه أخذت فقط إجازة لمدة عام لأرى العالم ، إننى أحب السياحة .. وكانت شركة الطيران فرصة العمر بالنسبة لى لأشاهد هذه الدنيا الواسعة .. وسأعود إلى عملى غدا .

- تقولين غدا .

نعم ، غدا فى الصباح الباكر .

ودون وعى منه أخرج عبد الفتاح من حافظة نقوده بطاقة الطبيب الكبير الذى سيجرى العملية الجراحية لابنه ، وسألها هل تعرفين هذا الطبيب ؟ وتصاعدت الدماء غزيرة إلى وجنتيها .

وأردف عبد الفتاح قائلاً : آسف لقد عطلتك عن عملك وهذا ليس من حقى .

- لا .. هذه مفاجأة عجيبة .. إنه الطبيب الذى أعمل معه نفسه ، وسأكون من الغد فى عيادته ..

ولم يدر عبد الفتاح ماذا يفعل ؟ هل يحدثها عن الحلم الذى رآه .. أو يطلب منها أن توصى الطبيب بابنه .. أو يسألها عن مخاطر العملية . ؟

وانساب صوتها فى رفق .. أغلب الظن أنك مستر عبد الفتاح من مصر وسألها فى دهشة بالغة : كيف عرفت ذلك ؟

- منذ أسبوع كنت فى زيارة الطبيب الذى أعمل معه زيارة خاصة ، وطلب منى أن أعد على الآلة الكاتبة تقريراً عن حالة طفل قادم من مصر والده اسمه مستر عبد الفتاح .. وسيتم إجراء العملية له بعد يومين .

وأخذ عبد الفتاح يتأمل وجهها للمرة العاشرة ، ملامح وتقاطيع المرأة التى انشقت عنها نفسها مياه البحيرة .. ماذا يعنى ذلك ؟

هل كان حلما أو حقيقة ؟ .. بالطبع هو حلم .. إن ابنه لا يزال بجواره وهما لم يغادرا الطائرة ..

إذن ماذا يعنى ذلك كله ؟ هل يعنى أن العملية ستنجح وأن ابنه سيعيش ويستمتع بالحياة .. أو أنها أضغاث أحلام .. لا صلة لها بالواقع ؟ لقد كان يراوده قبل ركوب الطائرة خاطر تأجيل العملية الجراحية بضعة أشهر أو حتى بضعة أعوام .. حتى يتجنب مواجهة مع القدر فى هذه الأيام ، لكن هل يسير القدر على هواه .. أو هوى أى إنسان ؟ ونظر إلى ابنه فوجده يضحك وهو يقول :

« بابا .. هذه المدموزيل طيبة ، أنا أحبها ، الأناناس طعمه لذيذ وأنا أشعر الآن بقوة وعافية ! »

وربت عبد الفتاح على ظهر ابنه وهو يقول :

« بالهناء والشفاء يا علاء .. هل تريد كوباً آخر ؟ » .

فأجابه علاء .. « لا ، يا بابا .. شكراً أنا فقط أريد أن أرى هذه المدموزيل مرة أخرى أنا أحبها .. » فربت أبوه على كتفه مرة أخرى وهو يقول : « نعم يا حبيبى سنراها قريبا .. » واحتضن ابنه وقبله فى حنان وهو يقول : « ستشفى يا علاء .. وستلعب الكرة مع الأولاد فى المدرسة .. »

وأخذ علاء .. يردد فى صوت خفيض وكأنه يخاطب نفسه : « سأشفى .. وسألعب الكرة مع الأولاد .. فى المدرسة .. ربنا كريم » وانساب صوت مذيع الطائرة يطلب من الركاب ربط الأحزمة ومنع التدخين استعداداً للهبوط ..

وتنهد عبد الفتاح فى ارتياح وهو يقول : « ربنا كريم .. نعم ربنا كريم ! »

المسافر

« هل ستقضين بقية حياتك هكذا ؟ . إنك لازلت صغيرة وجميلة . . أنت ابنتى وأنا أدرى الناس بمصلحتك . . » .

استمعت سعادإلى هذا الحديث المعاد ولم ترد ، غادرت الحجرة ، وتركت والدتها بمفردها ، كان يعز عليها أن تعامل والدتها هكذا ، لكنها لم تكن تطيق أن تستمع أكثر إلى هذه النصيحة ، كانت تعلم أن ثمن سعادتها هو حرمان ولديها من عطفها وحنانها ، إن أى زوج مهما يكن ثراؤه الاجتماعى لن يستطيع أن يحتل من قلبها ربع المكانة التى يحتلها طفلاها حسن وهشام .

ولماذا الزواج من جديد ؟ لقد تزوجت وترملت ، ويكفيها الآن أن تكرس حياتها لإسعاد هذين الطفلين ، سيكون ذلك شغلها الشاغل . . وتكون هذه هى سعادتها الحق . . ولن تأبه لأى توسلات من والدتها أو والدها . . أو من أى شخص آخر ! .

أما الحاجة أمينة – وكان هذا الاسم اسم والدة سعاد – فقد كانت تنظر إلى

حياة ابنتها من زاوية أخرى ، كانت تريد لها زوجاً يملأ عليها حياتها ، ويدخل عليها البهجة وينسيها الأيام السوداء التى عاشتها لأكثر من عام .

وماذا يضر الطفلين من الزواج ؟ إنهما سيعيشان فى كنف الزوج أو حتى فى كنفها هى . . إنها تحبهما وستحنو عليهما . .

ونظرت الحاجة أمينة فى ساعتها . . وتوجهت على الفور إلى النافذة ووقفت ترقب الغادين والرائحين على الكورنيش بقلق ظاهر وما بين لحظة وأخرى تعيد النظر فى ساعتها . . وما إن اقتربت الساعة من السابعة حتى أخذت ترقب السيارات المارة فى لهفة . . إنها تعلم أن سيارة الدكتور مدحت سيارة حمراء صغيرة ، وهو لاشك سيحضر فى سيارته فى الموعد المتفق عليه .

ومرت الدقائق بطيئة متثاقلة . . خمس دقائق . . عشر دقائق . . وبدأ اليأس يتسرب إلى نفسها ترى هل عدل عن الزيارة ؟ وهل طرأ ما يثنيه عن عزمه ؟ لقد اطلع على صورة ابنتها سعاد عند أحد أقارب الأسرة وأبدى إعجابه الشديد بها ، ولم تخف الأسرة من ظروفها شيئاً . . أخبرته بصراحة أن سعاد أرملة فى ربيع العمر لها من زوجها الأول طفلان . . .

ولم يعقب مدحت على هذه البيانات بشىء . . فقد طلب أن تتوسط له الأسرة فى زيارة لمنزل سعاد . . وتلقت الحاجة أمينة هذه الأخبار بسرور شديد ورحب بها زوجها وحدد الساعة السابعة من ذلك اليوم موعداً للزيارة . .

وعادت أمينة تسأل نفسها : ما سبب تأخر (العريس) ؟ ترى هل وجد من يغريه بعروس أخرى ؟ إن ابنتها بشهادة الجميع ذات جمال نادر أخاذ ، لكنها تعلم أن الأهل والأقارب كثيراً ما يفضلون ألا يتزوج أبناؤهم أرامل أو مطلقات ، وانبعثت آهة من صدرها ثم أخذت تتمتم « النصيب ! النصيب ! » .

وفى هذه اللحظة أبصرت سيارة حمراء أنيقة تقبل مسرعة ، وعندما اقتربت

من المنزل توقفت أمام الباب وأطل صاحبها برأسه ليتعرف على رقم المنزل . ثم غادر السيارة وأغلق بابها واتجه إلى المنزل . . كان يرتدى بذلة كحلية اللون ورباط عنق أحمر ، ويسير فى تؤدة ، إنه هو الدكتور مدحت نفسه . .إنه إذن لم يتخلف عن الموعد . . لقد تأخر قليلاً لكن لا عليه . . إنها سترحب به وتحسن لقاءه لعل وعسى ! .

وغادرت النافذة فى سرعة وطلبت من الخادمة أن تكون فى استقبال (العريس) ثم ذهبت تزف البشرى إلى زوجها الذى كان بدوره فى الانتظار . . لكن أين سعاد ؟ أخذت تبحث عن سعاد فى كل حجرة وتناديها باللقب المحبب لديها « سعدة . . سعدة . . أين أنت ؟ » ولكنها لم تتلق رداً ! .

فى تلك الأثناء كانت سعاد تقف فى ركن منزو من الشرفة التى تطل على البحر ترمق الأفق بنظرات شاردة ، كانت تستعرض فى مخيلتها صورة ولديها حسن وهشام وهما يثبان من حولها يسألان فى الحاح « أين بابا » وهى تذكر جيداً كيف أنها فى مبدأ الأمر حاولت أن تغالط الصغيرين ، فذكرت لهما أن خالهما محمد هو « بابا » ولكنهما ما لبثا أن عادا بعد أيام يخبرانها بأنهما علما من أطفال الحى أنه ليس والدهما وأنه خالهما فقط ، ثم يأخذان فى السؤال : « أين بابا » . . كل الأطفال لهم بابا ! .

واضطرت أن تقول لهما : إن والدهما على سفر وإنه سيعود فى القريب العاجل وهى تعلم فى قرارة نفسها أنه لن يعود شأنه فى ذلك شأن كل من يرحل عن هذا العالم ! .

وأصبح شغل الطفلين الشاغل أن يسألاها صباح مساء : « متى يعود بابا من السفر » .

وكلما لمحا شخصاً غريباً يفد على الأسرة هيئ لهما أنه لابد وأن يكون والدهما قد

عاد لتوه من السفر فيتعلقا به ثم ما يلبثا أن يتبينا الحقيقة فينزويا فى ركن من المنزل يذرفان دموعهما فى صمت ، ولم يكن ذلك هو كل ما يحز فى نفس سعاد ، كان يؤلمها أن أصابع القدر تمتد فى تلك الأيام لتفرق بينها وبين ولديها ! .

لقد تقدم لخطبتها كثيرون بعد وفاة زوجها ، وكان كل منهم يشترط أن تترك ولديها مع جدتهما ، ولم تكن من جانبها تطيق فراق الطفلين ، فرفضت كل عروض الزواج ، ولكن أسرتها رأت أن الطفلين يجب ألا يقفا عقبة فى سعادة أمهما . .

وكان منطق والدتها فى المرات السابقة أنه إذا استمرت سعاد فى رفض عروض الزواج بسبب التمسك بطفليها فإنه سيأتى يوم يذبل فيه جمالها ، وتتقدم بها السن ، وينصرف عنها طلاب الزواج ، ولن يتبقى لها بعد ذلك إلا الحسرة ! . .

وكان ردها على ذلك فى كل مرة . . واحد لا يتغير : إنها لا تستطيع أن تحرم طفليها عطف الأم بعد أن حرمها القدر من عطف الأب وأنها تؤثر أن تعيش بدون زواج وتكرس حياتها لتربية ولديها .

وأفاقت سعاد من أفكارها وتأملاتها لتجد والدتها بجانبها تربت على كتفها فى رفق ، وتطلب منها مغادرة الشرفة ، وهمست والدتها فى أذنها أن الدكتور مدحت قد حضر منذ دقائق ليطلب يدها ، وأن عليها أن تستبدل ملابسها بسرعة استعداداً لمقابلته . .

ونظرت إلى والدتها فى حزن ويأس وقالت : « ألم أقل لك ألف مرة : إننى لا أريد الزواج ؟ إننى سئمت الحديث فى هذا الموضوع ! . . »

وأخذت والدتها تتوسل إليها أن تقابل (العريس) ولو لبضع دقائق حرصاً على كرامة والدها الذى اتفق معه على الحضور فى ذلك الوقت لرؤيتها وحرصاً على مصلحتها هى . . فإن مدحت (كعريس) يعتبر « لقطة » فهو شاب لم يتجاوز الثلاثين من عمره من أسرة طيبة وأخلاقه رفيعة . . وله دخل محترم ، ويستطيع أن

يوفر لها أسباب الهناءة والسعادة . .

وغادرت سعاد الشرفة ، وذهبت إلى حجرة نومها حيث خلعت ملابسها وارتدت ثوباً من الحرير الأسود وصففت شعرها . وبوجه شاحب حزين . . وفى خطى متثاقلة توجهت إلى حجرة الصالون ، وما إن رآها مدحت حتى هب واقفاً وتقدم لتحيتها وهو يجيل بصره فى هذا الجمال الحزين !

وارتمت سعاد على إحدى المقاعد ، وجلست مطرقة برأسها إلى الأرض ، وأخذ مدحت يتلطف معها فى الحديث فكانت تجيبه . . ولكن بعبارات مقتضبة ، واشترك والدها ووالدتها فى الحديث وشاع فى الحجرة جو من المرح ، فعادت الابتسامة إلى شفتيها الذابلتين ، ولكنها ما لبثت أن اختفت هاربة عندما وصل الحديث إلى موضوع الأولاد . .

لقد صح ما توقعته سعاد : لقد سمعت من مدحت القصة نفسها المعادة التى سمعتها من كل من تقدم لخطبتها بشأن تخليها عن تربية طفليها لجدتهما . . ولم تطق صبراً ، ففضلت أن تترك الحجرة فى هدوء دون ضجة أو جلبة ، وعندما اقتربت من الباب أبصرت طفلها (حسن) يقتحم الحجرة ويقف أمامها ليسألها « أين بابا » ولم تكن سعاد فى موقف يسمح لها أن تعيد على مسامع الطفل الإجابة المعدة نفسها فآثرت أن ترفع ابنها عن الأرض وتحتضنه وهى تهم بالخروج من الحجرة . . ولكنه انفلت من بين يديها ووقف أمام مدحت يتأمله ثم سأله : أنت بابا !

ومرت فترة صمت رهيبة . . كانت فترة قصيرة ، لكنها كانت كافية ليستعرض مدحت فى ذهنه خلالها صورة من حياة طفولته عندما تفتحت عيناه على الدنيا ليجد والده ووالدته قد فارقا هذه الحياة إلى غير رجعة إثر حادث تصادم . . وتذكر مدحت كيف أنه حرم عطف أبيه وأمه من نعومة أظفاره وكيف أنه كان كثيراً ما يسأل جدته العجوز : أين ماما ؟ فلا تحير جواباً . . وتمد يدها إليه بقطعة من

الحلوى وتربت على كتفه . . وعيناها مغرورقتان بالدموع . .

وقطع مدحت الصمت بقوله : نعم أنا بابا ! وما سمع الطفل ذلك حتى ارتمى بين أحضانه ، وأخذ يقبله وهو يقول : لماذا غبت عنا يا بابا هذه الفترة الطويلة إنك لن تتركنا بعد الآن . . لن تسافر أليس كذلك ؟

فرد عليه مدحت قائلاً « بلى . . لن أسافر . . »

وفى هذه اللحظة دخل هشام الحجرة فأخذ حسن يصيح : تعال يا هشام . . هذا هو بابا قد حضر من السفر ، إنه لن يسافر بعد الآن . . سيبقى معنا هنا . .

واندفع هشام إلى حيث يجلس مدحت وفى خفة القط قفز إلى ظهره ، وأخذ يقبل رأسه وهو يبكى .

ووقفت سعاد تتأمل هذا المنظر ، ومدت يدها إلى منديلها الحريرى الصغير تجفف به دموعها دموع الأمل .

الكنز

كان المارة يبدون أمام عينيه كأشباح متراقصة حتى السيارات التى كانت تعبر الطريق أمام محله كانت تبدو وكأنها لعب أطفال - وعندما حضر بعض الزبائن ليشتروا من المعلم يوسف الجزار ما اعتادوا شراءه من اللحم - كان يبدو شارداً أشبه ما يكون فى غيبوبة لم يفق منها إلا عندما هزه صديقه المعلم عطية النجار قائلاً : « صح النوم يامعلم يوسف . . »

فرد عليه « نعم ، نعم ، حاضر » وقام على الفور متثاقلاً ليزن للزبائن ما يريدون من لحم ، ويضع النقود دون اكتراث فى جيب المعطف الأبيض الذى يلبسه باستمرار .

كان قد مل هذه الحياة ، مهنة الجزارة هذه مهنة شاقة ، وقد أصبح الآن وحيداً بعد أن تركه الصبى جمعة وعاد إلى مسقط رأسه فى الريف ليعمل بالزراعة . . لكن هذه الحال لن تدوم ، المهم أن يكون الشيخ محروس صادقاً فى كلامه ، ولماذا لا يصدق فى كلامه إنه رجل طيب ويحب له الخير ، ولم يطلب جزاء ولا شكوراً .

وعندما استعرض الحديث الذى أسر به إليه الشيخ محروس طفح البشر فى وجهه .

وبعد ساعات عاد المعلم يوسف إلى منزله متهلل الوجه ، وما إن وطئت قدماه عتبة الشقة حتى طلب من زوجته فى صوت هامس أن تعمل على نوم الأولاد بأسرع ما يمكن ، حتى يمكنهما أن يتحدثا على انفراد فى موضوع هام وخطير !

ولما همت نبوية أن تستفسر عن هذا الموضوع الهام والخطير ، وضع يده على فمه إشارة إلى الصمت ، فابتسمت وتوجهت فى هدوء إلى حجرة الأولاد فوجدت (حسنى) قد بدأ يستسلم للنوم أما لطفى وزكية فقد كانا يقلبان معاً صفحات إحدى المجلات المصورة التى استعارتها زكية من زميلة لها بالمدرسة ، فربتت نبوية عليهما وانتزعت منهما المجلة فى رفق وطلبت منهما أن يريحا نظرهما ويناما لأن الوقت قد تأخر . . وأمام مائدة الطعام جلس المعلم يتأمل لحم الرأس التى أحضرها من محله ؛ لتكون عشاء الأسرة وهمس لنفسه : قريبا سيتوب علينا الله من رأس الخراف ، والخراف نفسها . .

وأخذ المعلم يحدث زوجته عما حدث من أمور فى ذلك اليوم الرهيب ، لقد عثر الحاج سعد فى منزله صباح اليوم على كنز !

ونظرت نبوية إلى زوجها فى ذهول وصرخت : الحاج سعد يعثر على كنز ؟ . . فأجابها زوجها : نعم . . كنز من الذهب الخالص . . » وأشار إليها أن تلتزم الهدوء حتى لا يسمع الأولاد شيئاً من حديثهما . .

واستمر المعلم فى حديثه :

كان ذلك حوالى الظهر كان ينقل السرير من حجرة إلى أخرى . . واصطدمت رجل السرير وجدار الحجرة فتشقق الجدار . . وبدا من خلاله إناء من الفخار ما إن أخرجه حتى تساقط الذهب بين يديه ، وبرقت عينا المعلم وهو يكرر عبارة

الذهب نعم الذهب الخالص . . جنيهات ذهبية . . ومصوغ . . تصورى ! .

ولم تكن نبوية تستطيع أن تتصور ثروة من الذهب الخالص تهبط على عدوتها اللدود رسمية زوجة الحاج سعد . . فصرخت فى ضيق : « خسارة فيها ! . »

وأشار إليها المعلم أن تهدأ واسترسل يروى بقية القصة . .

لم يستطع الحاج سعد لفرط خيبته أن يكتم خبر هذا الكنز عن أولاده ، فنقلوه إلى أولاد الجيران ، وبعد نصف ساعة كان البوليس يحيط بالمنزل وتسلم الضابط الكنز كله ووقف الحاج سعد ذليلاً أمام المأمور يقسم أنه كان سيبلغ الحكومة خبر هذا الكنز بنفسه ، ويرجو فى الحاح أن تحفظ له الحكومة حقه فى المكافأة ! .

وبدا على نبوية مظاهر الارتياح الشديد ، ولكنها ما لبثت أن تساءلت : « ولكن لماذا يبدو عليك كل هذا الاهتمام ؟ »

وخفض المعلم يوسف من صوته ، واقترب من زوجته وهو يحذرها ألا تفشى السر الكبير الذى سيفضى به إليها : بعد اكتشاف الكنز فى منزل الحاج سعد حضر لزيارتى فى المحل الشيخ محروس وهو كما تعلمين يبلغ التسعين من عمره ، وهمس فى أذنى أن كنز الحاج سعد ليس الكنز الوحيد فى الحى ، هناك كنزان آخران ينتظران من ينقب عنهما .

وقامت نبوية إلى المصباح فأطفأته ، وطلبت من المعلم أن يكون حديثه همساً وأخذ المعلم يفرك يديه سروراً وهو يتم حديثه :

كان هناك شخص ثرى اسمه يحيى بك شريف يقطن هذا الحى منذ ثمانين عاماً ، وكان يمتلك ثلاثة منازل خصصها لسكناه وأفراد أسرته ، وعندما هاجر يحيى بك من الإسكندرية ضمن من هاجروا منها عقب ضرب الإسكندرية سنة ١٨٨٢ دفن ثروته وهى تقدر ببضعة آلاف من الجنيهات فى جدران المنازل الثلاثة حتى لا يسرقها منه اللصوص ، ومات فى الطريق إلى القاهرة ، ولم يكن أحد من أسرته

يعلم شيئاً عن الكنز المدفون !

وهنا رفعت نبوية حاجبها فى دهشة متسائلة « وكيف عرف الشيخ محروس بأمر هذا الكنز ؟ » وأجاب المعلم : لم يفتنى سؤاله هذا السؤال ، وأكد لى أنه علم هذا السر بطريق الصدفة كان متوجهاً لقراءة القرآن فى منزل يحيى بك شريف كالعادة فشهده يثقب جدار المنزل من الداخل فتظاهر بأنه لم ير شيئاً ، واستمر فى قراءة القرآن ثم شهد البك التركى بعد ذلك متوجهاً إلى منزليه الآخرين وهو يحمل إناءين من الفخار ففهم كل شىء . . وكان يظن أن ورثة يحيى بك قد عرفوا السر ، واستخرجوا الكنز خلسة ، لكنه اليوم تيقن أن أحداً لم يكشف أمر هذا الكنز قبل الحاج سعد . .

وارتفعت الدماء غزيرة إلى وجه المعلم ، وتعثرت الكلمات على شفتيه وهو يفضى إلى زوجته بالحقيقة المذهلة : إن هذا المنزل هو أحد المنازل الثلاثة التى كان يمتلكها يحيى بك شريف .

ولم يدع المعلم زوجته تسأله عما هو فاعله بعد ذلك ، فأخبرها أنه أعد للأمر عدته سيبدأ الحفر من الغد مساء بعد العاشرة مساء ، وتلاحقت أنفاس المعلم وهو يتحدث عن الثروة التى ستهبط عليه من السماء . . ولم يغمض للمعلم وزوجته جفن فى تلك الليلة . . ظلا طوال الليل ساهرين يرسمان خطط المستقبل الجديد . . سيشترى المعلم فيلا فى أحد الأحياء الراقية وسيارة كبيرة ، سيترك محل الجزارة الكئيب فى هذا الحى الشعبى ويفتتح مكتباً لتجارة المواشى بالجملة مقره السوق الرئيسية بالمدينة ، أما الأولاد فسيتركون المدارس المجانية التى يرتادها أبناء الناس الفقراء . . سيلحق البنت بمدرسة فرنسية والولدين بمدرسة إنجليزية وعندما يكبران سيبعث بهما إلى أوربا للحصول على الشهادة الكبيرة . !

وانتفخت أوداج المعلم وهو يتحدث عن (العريس) المنتظر الذى سيتقدم

لخطبة ابنته يوماً ما . . لابد أنه سيكون إنساناً عظيماً . . طبيباً أو قاضياً أو مهندساً . . ومن أسرة أصيلة تليق بنسب المعلم صاحب الثروة والجاه ! .

وحلت الساعة العاشرة من مساء اليوم التالى ، كان الأولاد قد استغرقوا فى نوم عميق طبقاً لنصيحة والدتهم ، وشمر المعلم عن ساعدى الجد ، وبدأت عملية الحفر فى الجدار . . فى المكان الذى أشار به نفسه الشيخ محروس وعثر فيه الحاج سعد على الكنز . .

واستمرت عملية الحفر لمدة ربع ساعة ، وتصبب جبين المعلم عرقاً ، ووقفت زوجته ترقبه فى قلق ، ثم نصحته أن يؤجل العمليةلليوم التالى حتى لا يكتشف أحد أمرهم . . ولكن المعلم تملكته نوبة عصبية وأخذ يصيح : « لا ، لابد الليلة . . الكنز الذهب . . الذهب . . لن يطلع علينا النهار ونحن فقراء . . كفانا فقراً . . لابد أن أعثر على الكنز الليلة . . » واستمر فى الحفر بسرعة وحماس . .

وفجأة أطلقت نبوية صرخة مدوية . . أخذ جدار المنزل يتشقق وبدأت النافذة تميل للسقوط . . ثم أخذ السقف بدوره يتشقق . .

طلبت نبوية من زوجها أن يغادر المنزل فوراً حرصاً على حياته . . وتوجهت إلى حيث ينام أولادها فحملتهم واحداً إثر الآخر إلى خارج المنزل وهى تولول طالبة النجدة . .

كان المعلم يقف كالمذهول أمام الجدار والدماء تنزف من ذراعه عندما دفعته زوجته دفعاً إلى خارج المنزل وهو يردد بصوت عال . . « الكنز . . الكنز »

وعندما حضر رجال المطافئ بعد دقائق وأحاطوا بالمعلم يوسف ليبعدوه عن المنزل المتساقط أخذ يقاوم بعنف ، ويحاول العودة إلى داخل المنزل وهو يصيح بأعلى صوته : « أنتم تريدون سرقة الكنز ، هذا الكنز من حقى وحدى . . لصوص ! . سأذهب غداً إلى المحامى ، سأبلغ النيابة سأرفع قضية ضدكم ! . . » .

وخارت قواه وهو يردد « الكنز . . الذهب . . الثروة . . لقد رأيت بريق الذهب بنفسي ! اللصوص يريدون سرقتي ، لن أمكنهم ، سآخذ الكنز لنفسي ، نبوية إياك أن تغادري هذا المكان قبل أن تستخرجي هذا الكنز ! . » .

زهور الفل

فتح سامى النافذة المطلة على البحر ، وأطفأ نور الحجرة ، وجلس بجوار النافذة ،.ووضع أمامه علبة السجائر والولاعة ، واتكأ بيده على حافة النافذة ، وأخذ يسرح بخواطره مع الأمواج المتدافعة نحو الشاطئ ، وفجأة التفت إلى الراديو الترانزستور الصغير الذى وضعه على المائدة .. لقد انبعث من الراديو صوت حالم يردد أغنية عاطفية معروفة ، وبدون وعى وجد يده تمتد إلى الراديو لتغلقه . .

إن هذه الأغنية تذكره أياماً عزيزة عليه ، أيام الخطبة ! لقد كان يحلو له ولعلية أن يرددا معاً هذه الأغنية ، وكانا يجلسان أمام الراديو على أحر من الجمر ينتظران إذاعتها ليستمعا إليها فى نشوة وسعادة .

من كان يصدق أنه بعد عامين اثنين فقط من تلك الأيام السعيدة : يتبدل الحال ، وتغادر زوجته المنزل ومعها طفلها الصغير حسنى ، ويبقى هو وحيداً على هذا النحو ؟

لقد مرت ثلاثة أشهر منذ غادرت زوجته المنزل ، لم يحاول أحد من أهلها

الاتصال به وهو لم يسع من جانبه لزيارتها ، لماذا ؟ لايدرى ! .

كل الذى يذكره أنه كان مرهقاً بالعمل فى الشهور الأخيرة . . وكان يتجاهل رغبات زوجته ، كما كان حاد المزاج بعض الشىء . .

لكن ماذنبها هى فى ذلك ؟ حقيقة ليس لها ذنب ، لكنه أيضاً ليس له ذنب ، لقد كانت فترة مراجعة الميزانيات وهو يعمل ويرهق نفسه من أجلها ومن أجل الصغير حسنى .

وعندما وصل به التفكير إلى حسنى تساءل : كيف ياترى حال الصغير العزيز ؟ كان لا يطيق فراقه يوماً واحداً فكيف صبر على الفراق هذه الشهور الطوال ؟ . وماذا لو تطورت الأمور بينه وبين زوجته وطلبت الانفصال ؟ . إنه لن يرفض ذلك الطلب فتصرفات أشقائها يشوبها كثير من الغرور والحماقة ، ولابد أن يظهر أمامهم بمظهر المعتز بكرامته ، لكن الطفل الصغير : هل سيبقى مع أمه ، أو ستسمح له بأن يعيش معه ؟ . إنه مستعد أن يدفع لها ما تشاء من نفقة على شريطة أن يبقى معه هنا ، إنها أيضاً لن تفكر فى اصطحابه معها ، لابد أنها ستتزوج فى وقت قريب أو بعيد ، إنها جميلة ما فى ذلك شك وأسرتها معروفة ، ولن تعدم (عريساً) يتقدم لطلب يدها ! .

ورن جرس التليفون فأفاق من خواطره وأفكاره ، ورفع السماعة وتناهى إلى سمعه صوت نسائى . . آلو . . الأستاذ سامى . . وهم بأن يضع السماعة كما فعل من قبل مرة ومرات ، إن هذه الأصوات النسائية تلاحقه منذ غادرت زوجته المنزل . . الحل الوحيد أن يغير رقم تليفونه ويجعل الرقم سرياً وليكن ذلك من الغد . .

وتساءل : هل يضع السماعة هذه المرة أو يرد على المتحدثة ؟ الأفضل أن يرد عليها ويعنفها ! بدأ الحديث بعبارات قاسية عن الأخلاق لكن الصوت قاطعه : سيادتك والد حسنى ؟ ووجد السماعة تهتز فى يده وأجاب : نعم . . فقالت المتحدثة

هنا مستشفى الأطفال . . ابن سيادتك فى الحجرة رقم ١٥ وحالته سيئة ، وتستطيع زيارته الآن إذا شئت .

وسقطت السماعة من يده وهو يردد بصوت متهدج : حسنى مريض ، لا ، لابد أنها خدعة ، غير معقول ، حالته خطرة . . يارب . . ماذا لوكانت خدعة ؟ إنه سيكون أسعد الناس ، سيرقص طرباً لكن ماذا لوكان مريضاً حقاً ؟ سيحضر له أكبر الأطباء . . سيسافر به إلى الخارج . . ماذا لو مات ؟ لا ، لا ، إنه لايتصور هذا الموقف ، حرام أن يموت هذا الطفل الصغير . . وفى لمح البصر ارتدى ملابسه ، وتوجه إلى الجراج وأخرج السيارة ، ويمم وجهه شطر المستشفى . .

وعادت الخواطر تلح عليه من جديد . . هل ابنه مريض ؟ هل مرضه خطير ؟ لابد أنه كذلك وإلا فما اتصل به المستشفى فى منتصف الليل ! هل سيشفى من مرضه وتكتب له النجاة ؟ .

إنه فى هذه الحالة سيقيم حفلاً كبيراً ، ويوزع الصدقات على الفقراء ، ولكنه لن يتركه مع أمه بعد ذلك سيحضره هنا ليعيش معه برغم أنفها !

ماذا يحدث لو توجه إلى المستشفى وقيل له : إن ابنه قد مات الليلة ، إنه سيبكى قطعاً وسيحطم الحزن قلبه ، ومن ثم ماذا يفعل بها ؟ إنها لن تصبح زوجته ، سيطلقها فى هدوء ، ويطلب من أهلها أن يأخذوا الأثاث على الفور . . الليلة . . لن ينتظر حتى الصباح . . سيعتزل الناس ، ولن يتزوج بعد ذلك أبداً ! .

وبعد دقائق وجد نفسه أمام المستشفى . . توجه إلى مكتب الاستعلامات وسأل : هل هنا طفل باسم حسنى سامى ؟ كانت أمنيته فى هذه اللحظة أن يسمع صوت الموظفة تقول « آسفة يا أستاذ ليس عندنا طفل بهذا الاسم » ولكنه فوجىء بها تغتصب ابتسامة وتقول : « سيادتك والده أليس كذلك ؟ . تفضل فى حجرة رقم ١٥ » .

حسنى إذن مريض ، ومرضه خطير وهو بين الحياة والموت ، وفى طريقه إلى الحجرة رقم ١٥ ألقى نظرة على الاستراحة ولمح فيها حماته الست نعيمة وقد وقف بجانبها ولداها محسن وعلى والجميع يبكون . . تبًّا لكم أيها الأشقياء ! الآن تبكين أيتها العجوز الشمطاء ! ألست أنت السبب فى كل ماحدث ؟ لقد حرضت ابنتك على مغادرة المنزل فى ساعة غضب ، وهأنتذى الآن تحصدين ما زرعته ! إنكم لم تشملوا الصغير بالرعاية الكافية ، فتركتموه عرضه للعدوى والأمراض ، لابد أنكم أيضاً أهملتم علاجه حتى وصلت به الحال إلى هذه الدرجة ، لكننى سأنتقم منكم ، وسألقى عليكم درساً لن تنسوه ! .

ووصل سامى إلى الحجرة رقم ١٥ وتسمرت قدماه ، وجد على الباب بطاقة صغيرة تحمل هذه العبارة : « ممنوع الزيارة إلا بأمر الطبيب » ، وتساءل : هل من حقه أن يقتحم الحجرة الآن أو ينتظر حتى يحصل على إذن من الطبيب ؟ .

وأقبلت إحدى الممرضات مهرولة وقالت له : « تفضل ، لكن أرجو ألا تتكلم أو تحدث صوتاً ، . . إن الهانم بالداخل » وفهم أنها تعنى بالهانم زوجته علية ، إنها مازالت زوجته حتى هذه اللحظة ، لكن من يدرى ؟ ماذا سيحدث الليلة ؟ .

وبدون وعى وجد نفسه يخلع خاتم الزواج من يده ويضعه فى جيبه ، ودلف إلى الحجرة فى هدوء والممرضة من خلفه .

فى ركن من الحجرة كان هناك سرير أبيض صغير ينام فوقه حسنى وكأنه فى غيبوبة وبجوار السرير مائدة وبضعة كراسى بيضاء وما إن رأته علية حتى همت واقفة ومدت يدها ، لكنه تجاهل اليد الممدودة إليه وتوجه إلى حسنى ووقف أمام السرير خاضعاً وقد اغرورقت عيناه بالدموع .

فكر هل يصفع زوجته ، أو يؤنبها لأنها أهملت رعاية ابنهما ؟ لكن من يدرى ؟ قد تكون مظلومة ولا ذنب لها فيما حدث ، كما أنه يجب أن يحترم تعليمات الطبيب

من أن أى حركة أوكلمة قد تؤذى الطفل .

وفى هذه اللحظة أقبل الطبيب . . حيّا (سامى) بهزة من رأسه ، وبإشارة من يده طلب من (سامى) وعلية أن يجلسا وأن يلزما الهدوء .

أنحنى الطبيب على حسنى يفحصه ، واستطاع (سامى) أن يلمح ابتسامة ترتسم على شفتى الطبيب ، فدب فى نفسه الأمل . .

وأخذ يجيل بصره فى المكان . . واسترعى نظره زهرية صغيرة تحوى بعض زهور الفل ، كانت الزهور ذابلة حقًا ، لكنها أثارت فى نفسه كوامن الذكريات : فى كل مرة كان يلتقى فيها وزوجته فى أثناء فترة الخطبة ، كان يقدم لها طاقة من زهور الفل ، كانا يعتبران هذه الزهور رمزاً لحبهما وسعادتهما . .

والآن من حق هذه الزهور أن تذبل بعد أن ذبل هذا الحب ، وتقوضت أركان تلك السعادة ! .

وتعلقت عيناه بالطبيب وهو يدير ظهره ، ويلتفت إليه وقد انفجرت أساريره ويقول :

« مبروك يا أفندم . . مرحلة الخطر انتهت ، يمكنه مغادرة المستشفى غداً أو بعد غد ، لكن يلزمه رعاية لمدة أسبوعين على الأقل » .

وشكر (سامى) الطبيب بعبارات متقطعة ، وقف يرقب زوجته وقد اغرورقت عيناه بالدموع ، وتصاعدت الدماء غزيرة إلى وجنتيها الشاحبتين ، فتراجع إلى الخلف قليلاً ، ودون أن تلحظه علية وضع يده على جيبه وأخرج خاتم الزواج وأعاده إلى يده اليسرى .

وعندما غادر الطبيب الحجرة وجد نفسه يقترب من المائدة ، وينثر الماء على الزهور . . فإذا بها تهتز وتتفتح .

واقترب من زوجته وقال لها فى صوت خفيض : « مارأيك فى أن يقضى

(حسنى) فترة النقاهة فى المنزل ؟ » . . وصمت قليلاً ثم أردف « أقصد منزلنا » .

وأطرقت علية برأسها إلى الأرض وأجابت « كما تحب » .

وأمام السرير وقف الزوجان متلاصقان لأول مرة منذ ثلاثة أشهر وأخذا يتأملان الطفل الصغير فإذا به يبتسم ، وكأنه يحيي مولد الحب الجديد ! .

بائع الكتب

كانت ليلة من ليالى الصيف بالإسكندرية ، وكنت أجلس مع صديقى حمدى على الشاطئ فى استرخاء أمام الكابين الخشبى نحتسى عصير الليمون ونسترجع ذكرى أيامنا الخوالى ، أيام الدراسة فى الجامعة والمدرسة الثانوية . .

وفجأة قال لى : إننى أتوق إلى زيارة الحى الذى نشأنا فيه ، إن له فى نفسى ذكريات عزيزة ، إننى أود أن أتنسم الهواء الذى كنت أتنسمه وأنا صبى صغير ، وأمشى فى الدروب التى كنت أمشى فيها كل صباح وأنا فى طريقى من المنزل إلى المدرسة الإبتدائية . . ووافقته على الفور ، وأقلتنا سيارة أجرة . . وبعد لحظات وصلنا إلى مشارف الحى .

وقف صديقى أمام المبنى الذى كانت تشغله مدرسته الإبتدائية . . وتسمرت قدماه ! كان القمر بدراً والنسيم عليلاً والجو معبقاً برائحة الذكريات . .

أخذ حمدى يشير إلى ما تبقى من بناء المدرسة العتيق ، هنا كان الفناء الواسع . . هنا حجرة الناظر . . وهنا الحديقة . . هنا قاعة الطعام . . هنا كنا

نلعب . . هنا كنا نتلقى الدروس .

وظل يتحدث فى همس ما يقرب من عشر دقائق . . وأنا صامت أومئ برأسى من وقت لآخر دلالة الموافقة . .

ونظر صديقى خلفه فرأى سائق السيارة مازال ينتظر ، فنفحه بضعة قروش وصرفه .

وأخذنا نجول فى الشوارع الضيقة المؤدية إلى المدرسة ، وفى أحد الشوارع وقف صديقى أمام مبنى متهدم أخذ يتفحصه جيداً ، ثم قال : نعم ، إنه هو ، ثم أردف قائلاً . هنا كانت مكتبة عم خير رحمه الله ، إن لهذه المكتبة قصة لا تنسى ، واستمر حمدى فى حديثه :

كان عم خير رجلاً طيب القلب فى حوالى الخمسين من عمره له لحية بيضاء صغيرة تكسبه وقاراومهابة ، ولم يكن يقوم بدور بائع الكتب فحسب ، وإنما كان يعتبر نفسه كما كنا نعتبره الوالد الروحى لنا جميعاً .

كان ذا ثقافة واسعة ، أتيح له أن يطالع الكثير من كتب السيرة واللغة والأدب والتاريخ ، ومع بداية كل عام كان أول من يقرأ الكتب المقررة قراءة واعية . . وقبل نهاية العام كان يطبع أسئلة الامتحان فى العام الماضى ويوزعها على التلاميذ .

كان محله أشبه بندوة يلتقى فيها التلاميذ فى غدوهم ورواحهم من المدرسة كان يناول كل تلميذ بغيته من كتب وأدوات مدرسية وهو يجيب عن الكثير من الأسئلة التى توجه إليه فى شتى فروع المقرر ! فإن لم يجد من يسأله كان لا يفتأ يشرح للحاضرين بعض قواعد اللغة أو أحداث التاريخ ، أو يلقى بعض نصائحه وهو يبتسم ابتسامته المعهودة .

وظلت الأمور تسير على هذا المنوال بضع سنوات حتى افتتحت هنا فى أقصى الشارع مكتبة جديدة تزدان بالفترينات الزجاجية والأنوار الجذابة ، كان صاحب تلك المكتبة ضخم الجثة أحمر الوجه يتحدث العربية بصعوبة ، وتعلو شفتيه

باستمرار ابتسامة صفراء ! .

ولم يعره عم خير اهتماماً فى بادئ الأمر ، لكن مع مرور الأيام استبان له أن كثيراً من حرفائه قد انصرفوا عنه وتحولوا إلى المكتبة الجديدة .

لقد تفتق ذهن الخواجة ديمترى – وكان هذا هو اسم صاحب المكتبة – عن حيل لجذب التلاميذ الصغار : كل من يشترى كتاباً للقواعد يأخذ كراسة صغيرة على سبيل الهدية ! وكل من يشترى كراسة يأخذ قلماً هدية ! وكل من يشترى قلماً يأخذ قطعة من النشاف ! وهكذا . . وكان واضحاً أن المكتبة الجديدة لا تحقق بذلك ربحاً ، ولم يكن هذا يعنى الخواجة بقدر ماكان يعنيه أن يقضى على منافسه عم خير .

وبعد شهرين اثنين توجه الخواجة ديمترى إلى عم خير ، وعرض عليه أن يغلق مكتبته ، ويعمل بائعاً عنده بأجر مجز ، ولكن (عم خير) لم يوافق فغادر الخواجة المكان غاضباً منتفخ الأوداج ! .

وفى صباح اليوم التالى أغلق عم خير مكتبته فعلاً لكنه لم يعمل أجيراً عند الخواجة ديمترى ، وفى ذلك اليوم ساد المدرسة وجوم شديد ، كان ابن عم خير الأصغر زميلاً لنا فى المدرسة ، ولما سأله بعضنا عن والده أخبرنا أنه مريض . . وقد عاده اثنان من الأطباء وأن حالته تنذر بالخطر ، وفى لحظة انتشر الخبر فى المدرسة : عم خير مريض ، وحالته تنذر بالخطر ، واجتمع التلاميذ جميعاً فى فناء المدرسة . وعندما دق الجرس مؤذناً بابتداء الحصة التالية كانت حجرات الدرس تبدو جميعها خالية ، كان التلاميذ يتحدثون عن عم خير فى إجلال وتقدير ، كان بعضهم يبكى والبعض الآخر يلوم نفسه لأنه تعامل هو والخواجة ديمترى ! ووصل الحماس ببعض إلى أن أحضر الهدايا التى أخذها من مكتبة الخواجة وأخذ يمزقها أمام أعيننا إرباً إرباً .

وفوجئ الناظر باجتماعنا فى الفناء . . فأقبل علينا وعيناه يتطاير منها الشرر . .

وفى أعقابه بعض المدرسين ، وبرغم أن مرأى الناظر على هذا الوضع كان كفيلاً بأن يقذف الرعب فى قلب أكثر التلاميذ شجاعة فإن أحداً منا لم يتحرك من مكانه ! وصرخ الناظر فينا مهدداً متوعداً طالباً منا العودة بسرعة إلى حجرات الدرس ، ولكننا لم نعره اهتماماً ! .

وتقدم أحد التلاميذ إلى الناظر يشرح له الموقف ، واستمع إليه الناظر فى هدوء وإذا بالناظر يخرج منديلاً صغيراً من جيبه يجفف به دموعه ! يا للعجب ! هذا الرجل الذى كنا نظنه غليظ القلب يبكى أمامنا لأول مرة ! .

وتوالت الاقتراحات من المدرسين والتلاميذ : فبعضهم يرى أن نجمع مبلغاً من المال نقدمه معونة لعم خير ، ولكن ابنه اعترض ، إنه يعلم أن والده لا يقبل معونة من أحد ، اقترح أحد التلاميذ فى نوبة حماس تحطيم محل الخواجة ديمترى ، لكن الناظر رفض هذا الاقتراح بشدة ، وأخيراً قال حسن أفندى مدرس اللغة العربية إن كل تلميذ فى هذه المدرسة فى حاجة إلى شىء يشتريه : كتب أو كراسة . . أو قلم رصاص . . لماذا لا نشترى هذه الأشياء كلها فى وقت واحد اليوم ؟ وتعالت صيحات التأييد لهذا الاقتراح ، وسرعان ما تم الاتفاق على أن يعد تلميذ من كل فصل قائمة بما يريد التلاميذ شراءه من مكتبة عم خير ، ويجمع منهم النقود ، وتفرقنا إلى حجرات الدرس فى هدوء .

وفى نهاية اليوم الدراسى شهد هذا الشارع منظراً فريداً لا يمكن أن أنساه : مدرس اللغة العربية وعدد من التلاميذ يتقدمون فى خشوع نحو منزل عم خير ، أما باقى تلاميذ المدرسة فقد تفرقوا فى الشوارع المجاورة ينتظرون نتيجة الزيارة .

واستقبل عم خير المدرس والتلاميذ وهو على فراش المرض ، وأخذ حسن أفندى يتحدث فى هدوء استفسر فى بادئ الأمر عن صحته ، ثم طرق الموضوع برفق . . أخبره أن الناظر لاحظ أن كثيراً من التلاميذ لم يهتموا باستكمال ما يلزمهم

من كتب وأدوات مدرسية مما يؤثر فى تحصيلهم ، وأنهم قد توجهوا ذلك الصباح إلى المكتبة فوجدوها مغلقة ، فرأوا أن يحضر نفر منهم لزيارته فى المنزل وليسلموه قائمة بما يحتاجون إليه ، وسلمه حسن أفندى قائمة طويلة أخذ يقرؤها وهو يفرك فى عينيه : كتاب المطالعة عندى ، كراريس الرسم عندى أيضاً : المرشد فى الحساب سيأتى غداً ، بل سأحضره اليوم !

ودون أن يشعر وجد عم خير نفسه ينتصب واقفاً ثم يمشى ، ثم يفتح الباب وهو بملابس النوم ، فأحضر له ابنه معطفاً وضعه على كتفيه فى سرعة وهو يتأمل القائمة ، ويصيح : هذا الصنف موجود ، هذا الصنف سأحضره الليلة ، بل الآن . . ألم أقل لكم يا أولادى التفتوا إلى دروسكم ؟ يجب أن تستذكروا من الآن . . إن السيد الناظر يعرف مصلحتكم لا شك .

وأخذ عم خير طريقه إلى محله وكأنه لم يمسسه مرض ونحن جميعاً خلفه . . ووقف الخواجة ديمترى يتأمل هذا المنظر وهو يتميز غيظاً !

أخرج حسن أفندى من جيبه ما دفعه التلاميذ من نقود ، كان المبلغ خمسة عشر جنيها . . وضعها أمام عم خير الذى شغل عنها بالحديث إلى التلاميذ الذين التفوا حوله ، وأخذوا يلاحقونه بأسئلتهم المعتادة . . وهو يجيبهم بسرعة وقد عمر البشر وجهه . . كان أشبه بطفل صغير تتسلل السعادة إلى قلبه لأول مرة . .

وبعد أسبوع أغلق الخواجة ديمترى محله ، وغادر الإسكندرية إلى غير رجعة !

وصمت صديقى حمدى ثم أردف قائلاً : لقد فعل ذلك اليوم فى صحة هذا الرجل الطيب فعل السحر ، لقد عاش بعد ذلك أكثر من عشرين عاماً وهو يمتلئ صحة وعافية ، ووافاه أجله فى الأراضى المقدسة بعد أن أدى فريضة الحج .

واستطعت أن ألمح على ضوء القمر دمعتين تنسابان من عينى حمدى ونحن نغادر المكان فى هدوء فى طريق عودتنا إلى المنزل .

قلب كبير

انصرف عادل إلى ترتيب ملابسه فى الحقيبة وهو يدندن بأغنية شعبية شائعة ، وبعد أن انتهى من ترتيب ملابسه جلس على حافة السرير يفكر : أهكذا تأتى النهاية سريعاً ؟ . حقيقة أنها نهاية سعيدة لا شك ، فقد نجحت العملية الجراحية وتم شفاؤه ، واسترد صحته فى فترة قصيرة ، ولكنه كان يشعر كلما اقترب موعد رحيله برغبة ملحة فى إطالة أيام إقامته فى المستشفى ! كان يهيأ إليه أن حياته خارج المستشفى ستكون مملة باهتة قاتمة ! ستكون خالية من شىء لطيف يبعث البهجة والأمل ! جلس يسأل نفسه : ماذا يكون هذا الشىء ؟ – وجاء الجواب سريعاً : إنها هى ، وعلت شفتيه ابتسامة عريضة وهو يتخيلها تروح وتغدو أمامه فى ثوبها الملائكى الأبيض ، ثم مالبثت الابتسامة أن اختفت عندما تذكر أن اليوم سيكون آخر عهده بها . ووضع يده على خده وجلس يفكر : ماذا يستطيع أن يفعل ؟ إنه لا يستطيع أن يبقى فى المستشفى إلى الأبد ! سيصير زوجاً عما قريب ، وهو أيضاً أو المفروض أنه سيصير كذلك بعد أن تحضر بنت خالته مع أسرتها من الصعيد .

وهى من جانبها كانت متحفظة معه طوال مدة إقامته فى المستشفى فبرغم أنها كانت تبالغ فى العناية به والسهر على راحته فإنه لم تبدر منها حركة أو كلمة أو ابتسامة يستشف منها أنها تبادله عواطفه .

وتزاحمت فى مخيلته صورتان : صورتها ، صورة سعدية الممرضة بقوامها الممشوق ترمقه فى عطف وحنان بعينيها العسليتين وقد تدلت خصلة من شعرها على وجهها فزادتها فتنة وجمالاً ، وصورة بنت خاله بوجهها المتبلد الخالى من الحياة ، وأحاديثها المملة عن الأطيان والزراعة ومحصول القطن !

وسرعان ما احتلت الصورة الأولى مخيلته وطغت على مشاعره ، وتخيل نفسه بعد ذلك وهو يجادل والدته فى أمر زواجه من سعدية ! أن أول شىء سيسمعه منها أن سعدية لا تليق بمقامه ، فلم يسبق أن تزوج أحد أفراد أسرته ممرضة ! ثم هناك بنت خاله . لقد تبرعت والدته بخطبتها له منذ كان صبياً صغيراً ، فحجزها أهلها . . ماذا سيقول الناس عندما يتخلى هكذا فجأة عن بنت خاله التى ظلت تنتظره السنوات الطوال ؟ كل هذا لا يهم . . إنه ليس قاصراً ويستطيع التصرف حتى لو لم تقتنع والدته . ومع ذلك فهو يعرف مكانته عندها فهو ولدها الوحيد . . وأملها الباقى فى الحياة ، ولن تعمل فى النهاية على إغضابه ، المهم أن يصمد للعاصفة ثم ينتصر ! .

وما إن وصل إلى هذه النتيجة حتى علت شفتيه ابتسامة الثقة وابتسامة النصر الذى بدا له قريب المنال .

وسمع طرقاً خفيفاً على الباب فاعتقد أنها والدته جاءت لتصحبه عند خروجه من المستشفى ، وتوجه ليفتح الباب وهو يعد فى ذهنه العبارات التى سيمهد بها للموضوع ، سيحدثها عن إخلاص سعدية وطيبة قلبها ، وحسن معاملتها له وعن . . وعن . .

وفتح الباب ليستقبل والدته . ، ولكنها لم تكن والدته وإنما كان شخصاً آخر

وعقدت المفاجأة لسانه . . كانت سعدية نفسها على الباب . وتصاعدت الدماء غزيرة إلى وجنتيه ، وارتبك ولم يدر ما يقول ؟ .

ومدت سعدية يدها بطاقة صغيرة وقالت : « لقد تعودت أن أقطف هذه الزهور من حديقة المستشفى كل أصيل لأزين بها الموائد ، وقد استأذنت إدارة المستشفى فى إهداء هذه الطاقة لك اليوم ، وأرجو أن تقبلها هدية متواضعة بمناسبة شفائك » ووقف عادل يتأمل الزهور ثم تذكر أنه لم يوجه كلمة شكر ولم يدعها للدخول ، فنظر إليها وقال : أنا متشكر . . عاجز عن الشكر . . تفضلى بالدخول ، ولكنها استأذنت منه وانصرفت بسرعة . .

وجلس يتأمل الزهور وهو يتساءل : هل تحمل هذه الزهور فى أفكاره معنى ثم سمع صوت خطوات تقترب منه ثم طرقاً على الباب ، وشاهد بعد ذلك والدته تدفع الباب فى رفق وهى تردد « الحمد لله على سلامتك . الحمد لله على سلامتك » .

واستقبلها عادل هاشاً باشاً . . وأغلق حقيبة ملابسه ، وقبل أن يتهيأ للخروج همس فى أذن والدته : « لقد كانت الممرضة سعدية فى غاية النبل معى . . لقد أحاطتنى برعاية خاصة . . إننى لا أدرى كيف أرد الجميل ؟ » .

وسمعت والدته هذا الكلام ، فأخرجت من حافظة نقودها ورقة من فئة الخمسين قرشاً وسألته : « هل هذه تكفى » .

ونظر إليها عادل فى ضيق ! وبدا على وجهه عدم الرضا ! فما لبثت أن قالت : « سأعطيها جنيهاً مادامت قد اعتنت بك إلى هذا الحد » .

واضطر عادل آخر الأمر أن يصارحها : « إن سعدية من أسرة طيبة . كان والدها تاجراً كبيراً ثم أخنى عليه الدهر . وهى لا يمكن أن تقبل أى مبلغ على سبيل « البقشيش » إنها ذات نفس عالية ولا داعى لإحراجها . إننى أقترح دعوتها لزيارتنا يوماً فى الأسبوع ، وليكن يوم الخميس مثلاً بعد الظهر . فما رأيك ؟ إنها يتيمة

وستشعريه بعطف الأم » .

وشعرت الأم بما فى كلام ابنها من عزم وتصميم ، فلم تشأ أن تصده ، وتوجهت معه حيث تجلس سعدية فى حجرة الممرضات . وقالت لها : « إننى أشكر الله يا آنسة سعدية على عنايتك بعادل ويسرنى أن تتكرمى بزيارتنا فى المنزل بعد ظهر أيام الخميس . إننى لم أنجب ويسرنى أن أعتبرك بنتى » .

وأفلحت سعدية فى أن تمنع دمعتين من الانسياب على وجنتيها ، لكن ما إن غادر عادل ووالدته المستشفى حتى انفجرت باكية .

ومرت أيام الأسبوع متثاقلة ، وأتى يوم الخميس واستعد عادل للقائه استعداداً خاصاً ، فاشترى كمية من التفاح والكمثرى والبيتى فور . ولم تخيب سعدية ظنه ، فحضرت فى الموعد المحدد واستقبلها عادل ووالدته استقبالاً طيباً .

وكانت والدته تتظاهر بالسرور كلما أمعن فى الترحيب بسعدية ، لكنها كانت فى الوقت نفسه تطوى جوانحها على ألم وحسرة بالغتين ، وكانت تشعر بمرارة كلما تذكرت أن وراء الأكمة ماوراءها ! وأن الأمور إذا استمرت على هذا المنوال فستتطور إلى ما هو أسوأ ، وبطير عادل من يديها وتتلقفه هذه الممرضة التى لا تعرف لها أهلاً ولا نسباً ولا حسباً ! .

واستمرت الأمور على هذا المنوال ثلاثة أسابيع متوالية : تحضر سعدية إلى منزل عادل بعد ظهر يوم الخميس فيستقبلها ووالدته استقبالاً كريماً ، وتمضى فى ضيافتهما نصف ساعة تتناول فيها الشاى والحلوى وبعض الفواكه ، ثم ما تلبث أن تستأذن وتنصرف ، وكان عادل لا يخفى مظاهر ارتياحه كلما حان موعد زيارتها ، ولكن والدته استطاعت بالصبر وضبط النفس أن تخفى مظاهر تشاؤمها من هذه الزيارات .

وفى الأسبوع الرابع عاد عادل إلى المنزل ظهراً محملاً ببعض علب الحلوى . . ونظرت إليه والدته وإلى علب الحلوى ، ثم قالت والابتسامة تعلو شفتيها :

لقد حضرت سعدية صباح اليوم ، ولن تتمكن من الحضور بعد الظهر لأنها ستقابل خطيبها فى ذلك الوقت . وربنا يهنيها ، إنها على أى حال فتاة طيبة تستحق الخير » .

ووقعت هذه الكلمات على عادل وقع الصاعقة : ستقابل خطيبها ! ربنا يهنيها . . لكن . . ما معنى ذلك ؟ هل كان مخدوعاً عندما اعتقد أن سعدية تبادله عواطفه ؟ أو هل يئست سعدية من عدم تقدمه لخطبتها خلال هذا الشهر ، فدفعها هذا اليأس إلى قبول شخص آخر ؟ ولكن لماذا لم تصارحه بذلك وهى تشهد تعلقه بها وحرصه الشديد على استقبالها مع والدته كل يوم خميس ؟ .

وتنهد عادل فى أسى !

ومر شهران ، وفى أعقاب الشهرين حضر خاله وأسرته من الصعيد ، وذات يوم أقبلت عليه والدته باسمة وأسرت عليه أن خاله يرحب به (عريساً) لابنته وإنها قد عرفت أن بنت خاله متيمة به ، وأنها تحتفظ بصورته معها ، وتنتظر بفارغ الصبر تقدمه بطلب يدها .

وبعد عدة محاولات استجاب عادل لتوسلات والدته . لم يكن يشعر لبنت خاله بعاطفة حقيقية ، لكنه كان يشفق على قلبها أن يتحطم إن رفض الزواج منها ، كما كان يؤمل أن يجد فى هذا الزواج سلوى تنسيه سعدية وبلسماً شافياً لجراح قلبه !

ومرت الأيام وزف عادل إلى بنت خاله ، وانتقلت مع زوجها إلى مسكن أنيق يطل على النيل . وبرغم أن هذا الزواج قد انتزعه من أحضان والدته ، فإنها كانت تبدو راضية قريرة العين وكثيراً ما كانت تهمس فى آذان صديقاتها بأنها عرفت كيف « تسايس » (عادل) وتصل إلى غرضها دون أن يصطدما أو تجرح شعوره !

وبعد سنة تقريباً من الزواج آن الأوان لكى يصبح عادل أباً ، ورأى حرصاً على راحة زوجته أن تضع وليدها فى إحدى المستشفيات ، وتذكر العناية الفائقة التى

لقيها في المستشفى الذى أجرى فيه عمليته الجراحية . فماذا عليه لو استأجر لها حجرة بالدرجة الأولى فى ذلك المستشفى ؟ إن ذلك سيكون أدعى لراحتها ولراحة طفلها المرتقب .

وعندما طافت بذهنه صورة سعدية أجفل قليلاً ، وتساءل : هل من المناسب أن يلاقيها مرة أخرى بعد كل ما حدث ؟ أليس من الأفضل أن تضع زوجته وليدها فى مكان آخر حتى لا يثير المستشفى فى نفسه كوامن ذكريات الأيام التى قضاها فيه ؟ لكنه ما لبث أن أقنع نفسه بأنه لا ضير فى ذلك ؛ فسعدية لابد أن تكون قد تركت العمل بعد الزواج ، فلا خوف إذن من لقائها فى المستشفى ، وما يهمه الآن هو صحة زوجته وتوفير العناية الكافية لها . وصح ما توقعه . فلم يلتق بسعدية طوال الأيام الثلاثة الأولى التى تردد فيها على المستشفى . وخلال موجة الفرح التى غمرته بلقاء طفله الأول وخروجه إلى الدنيا فى صحة جيدة نسى كل شىء عن سعدية وعن ذكرياته بالمستشفى .

وفى اليوم الرابع توجه إلى حجرة زوجته فوجد عندها الطبيب وعلم منه أن صحتها ساءت ، ولم يجد الطفل بجوار والدته فسأل عنه أمينة الممرضة التى كانت تشرف على راحة زوجته ، فأجابت أن زميلتها سعدية قد أخذته لتبدل له ملابسه ! وامتقع وجه عادل عندما سمع اسم سعدية وتساقط العرق غزيراً من جبهته .. ولكنه تماسك وتظاهر بعدم الاكتراث ، وعاد يسأل الممرضة فى صوت خافت :

– هل سعدية هذه هى سعدية عبد الحميد التى كانت تعمل بقسم الجراحة ؟

– نعم هى ، لقد نقلت إلى هذا القسم من يومين فقط .

– لكن كيف ؟ هل سمح لها زوجها بالعمل بعد الزواج ؟

– زوجها ؟ ! إنها لم تتزوج حتى الآن !

– لكنها كانت مخطوبة فى وقت من الأوقات أليس كذلك ؟ .

ونظرت إليه الممرضة وابتسمت ابتسامة حزينة وقالت :

– كلا . . لم تكن سعدية مخطوبة فى يوم من الأيام . . وإن كانت الظروف قد اضطرتها فى وقت من الأوقات إلى أن تمثل دور المخطوبة حرصاً على مصلحة من تحب . لقد استعارت دبلة خطبة إحدى صديقاتها حتى تجيد تمثيل هذا الدور وأقدمت على تضحية نادرة . إنها فتاة نبيلة ذات قلب كبير . لكنها مسكينة ليس لها حظ فى هذه الدنيا ! وامتلك نفسه وسأل أمينة :

– أين سعدية من فضلك ؟

– فى الحجرة رقم ٧ تستطيع أن تتوجه إليها إذا شئت لتطمئن على ابنك . .

وتوجه عادل إلى الحجرة رقم ٧ وقد اكتست الدنيا فى عينيه غلالة سوداء .

وما إن وصل إلى الحجرة ووجد بابها مفتوحاً حتى دلف إليها فى هدوء . . وهناك شاهد منظراً لا يمكن أن ينساه : كانت سعدية تقف فى منتصف الحجرة ، وتحمل ابنه بين ذراعيها وتغمره بقبلاتها ! وعندما سمعت وقع أقدام استدارت لتتبين من القادم ؟ وما إن وجدته (عادل) حتى ابتسمت ومدت يدها اليمنى إليه وقالت فى هدوء :

« مبروك . . إننى أتنبأ لهذا الطفل بمستقبل باهر . . سيكون رجلاً عظيماً مثل والده ! »

ودارت به الدنيا وهو يقول لها « العفو . متشكر . . متشكر جداً . »

وفى هذه اللحظة أقبلت إحدى الممرضات لاهثة وقالت لعادل : إن الهانم . . فى . . ثم توقفت عن الكلام ، وسألها عادل : ماذا حدث ؟ تكلمى . . هل أصابها شىء . .

فأجابت نعم . . لقد ازدادت حالتها سوءاً . . وقد نقلت لغرفة العمليات . . وحالتها . . وفهم عادل كل شيء . .

وفى الطريق إلى غرفة العمليات سار عادل مطأطئ الرأس ومن خلفه سارت سعدية وهى تحضن الطفل فى حنان بالغ يفوق حنان الأمهات ! .

رقم الإيداع	١٩٧٩ / ٤٩٧٧
الترقيم الدولى	ISBN ٩٧٧ – ٢٤٧ – ٨٥٦ – ٠

١ / ٧٩ / ١٦٠

طبع بمطابع دار المعارف (ج. م. ع.)